مكتبة نوميديا 170
Telegram: @Numidia_Library

الطبعة 12

اذكرني عند ربك

رواية

عبد الحميد وشفون

عصير الكتب

اذکرنی عند ربک

عصير الكتب

الكتـــــاب : اذكرني عند ربك

المـــؤلـــف : عبدالحميد وشفون

تـدقيـق لغـوي: محمد بن عماد

تنسيـق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: أغسطس 2019

رقـــم الإيـــداع : 2019/14865

I.S.B.N : 978-977-992-059-7

المدير العام:محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

مراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

[redacted]

رواية

اذكرني عند ربك

عبد الحميد وسفون

عصير الكتب

الإهداء

"إلى مسلمي الروهينجا "

المقدمة

عَلَّقَ عالم الفلك الأمريكي العظيم كارل ساغان على صورة التقطت للأرض من بعيد، قائلًا:

«تلك النقطة هنا موطننا عليها جميع من تحب، جميع من تعرف جميع من سمعت عنه، كل إنسان مهما كان عاش عليها، هي جملة أفراحنا ومعاناتنا، الآلاف من المعتقدات والأفكار والمذاهب الاقتصادية، كل صياد وجامع طعام، كل بطل وجبان، كل صانع ومدمر للحضارة، كل ملك ومزارع بسيط، كل زوجين يافعين واقعين في الحب، كل أب وأم وابن، كل عالم، كل مخترع ومستكشف، كل معلم للأخلاق، كل سياسي فاسد، كل مشهور وقائد أعلى كل تقي وآثم في تاريخ جنسنا البشري، عاش هناك على ذرة غبار عالقة في شعاع الشمس، الأرض منصة صغيرة جدًا في ساحة كونية واسعة، تفكر في القسوة اللامتناهية التي يغزو بها سكان أحد أجزاء تلك النقطة سكانًا آخرين بالكاد تميزهم في جزء آخر منها، كم هي متكررة اختلافاتهم! كم يتوقون لقتل بعضهم

البعض! كم هي مشتعلة كراهيتهم! فكر في أنهار الدماء التي سفكت من طرف كل هؤلاء الجنيرالات والأباطرة، لكي يصبحوا بكل مجد وانتصار أسيادًا لجزء من نقطة، إن توهمنا بأهميتنا واعتقادنا بأننا مركز الكون تتحداها تلك النقطة باهتة الضوء، كوكبنا بقعة وحيدة في الظلام الكوني العظيم في غموضنا في هذا الاتساع الرهيب، ليس هناك أي دليل على أن المساعدة ستأتينا من كوكب آخر، لتنقدنا من أنفسنا! الأرض حتى الآن هي الملاذ الوحيد للحياة، لن يمكن لجنسنا البشري أن يهاجر لمكان آخر في المستقبل القريب على الأقل، ربما لا يوجد أي إثبات لحماقة الغرور البشري أفضل من تلك الصورة البعيدة لعالمنا الصغير، بالنسبة لي فهي تجسد مسؤوليتنا كي نتعامل بلطف وعطف مع بعضنا البعض، وأن نحافظ ونعتز بهذه النقطة الزرقاء الموطن الوحيد الذي عهدناه منذ القدم...»

-١-

- متى ستعود يا أبي؟

- لن يطول غيابي كثيرًا يا ابنتي، وربما لن أستطيع التواصل معكم أثناء تواجدي هناك، لكني سأبذل جهدي لأُنهي عملي هناك بسرعة وأعود إليكم... حسنًا!

- حسنًا... لكني بدأت أشتاق إليك بالفعل... اعتنِ بنفسك بابا!

- بالطبع يا صغيرتي... سأفعل... وأنتِ اعتني بماما جيدًا... حسنًا!

- أجل بابا... قبلاتي... إلى اللقاء!

- إلى اللقاء حبيبتي... أقبلك...

***

- ما هذا يا عماد!

- ألا ترى! أراسل ابنتي...

- وهل أزعجتك يا ترى؟

- لا... لكني متعب جدًّا، وأريد أن أغفو قليلًا.

- حسنًا إذن... ما رأيك بسورة يوسف؟

- أجل بالطبع... حتى أنني فكرت في ذلك.

أعاد عماد قراءة الرسائل التي أرسلها وتلقاها إلى ومن ابنته كي يطمئن نفسه بأنه قد نجح في إقناعها بأن غيابه هذا لن يتعدى يومين أو ثلاثة من أجل تغطية أحد المؤتمرات الدولية المقامة بإحدى الدول المجاورة.

أمال رأسه على رأس الكرسي، ودخل إلى مشغل الصوت في هاتفه، اختار السورة القرآنية المحببة إلى نفسه، عدل مستوى الصوت بما يناسب الهدوء الذي حوله، وأغمض عينيه، وغاص مع الآيات يتدبرها يقارن ما فيها وبين ما يدور في مخيلته.

كانت كابينة الركاب تبدو تقريبًا مثل مقصورة باص كبير فاخر، لم تكن المقاعد ممتلئة بل أغلبها خالية من الركاب، وما عدد الذين قد تكون لديهم رغبة في ركوب رحلة مثل هذه من قد يرغب بزيارة بلد فقير كبنغلادش، وفي أكثر مناطقه تطابقًا مع الصفة السابقة، يمكن معرفة ذلك بمجرد النظر

داخل الكابينة، الكثير من الصمت والكثير من الهدوء، القليل من الركاب والكثير من الوجوه العابسة بينها.

حسنًا هذا عماد، من عماد؟!

شاب عربي مسلم طموح غيور على دينه ووطنه، دخل عقده الرابع، وخلال الثلاث والثلاثين سنة الماضية حمل في قلبه الكثير من الحب، الكثير من الاهتمام، والكثير من الأخلاق والصدق في تعاملاته، مع كل من ركب سكة دربه، على فكرة، هو لم يجرؤ هذه المرة على الكذب على ابنته فقط، بل على أصدقائه أيضًا، وتجاوزهم إلى أخيه ووالده، لكنه لم يستطع فعل ذلك مع زوجته سيرين المسكينة، كم بكت تلك الليلة عندما أخبرها بوجهته الحقيقية والسبب الحقيقي وراء رحلته، واحتمالية عدم رجوعه منها، ترجَّته كثيرًا وتوسلت أن لا يغادر، حاولت جعله يعدل عن فكرته المجنونة كما ارتأت هي أن تسميها من خلال تذكيره بشيء لم يكن لينساه أبدًا، أنا وابنتك وعائلتك... لماذا أنت؟ لأجل ماذا؟ لكنها في النهاية استندت على الجدار معلنة استسلامها، ولم تجد من سبيل لفظ فظة الخوف الذي اعتراها على زوجها سوى طرحه في شكل دموع حارة خلف كل جدار من جدران منزلها، في المطبخ في الرواق أو كلما أوصدت باب غرفتها على نفسها.

شخصان آخران كانا يعلمان سره الصغير الكبير أيضًا، فكون عماد يعمل في أحد الصحف اليومية، وجب عليه أخذ

الإذن من مدير عمله للقيام بهذا الأمر، وكذلك نسيبه السيد عادل رجل الأعمال الشهير في البلد، وما عدا هؤلاء الثلاثة فالجميع يعلم بأن عماد في رحلة عمل إلى تركيا.

***

ظلام دامس ورطوبة شديدة عفنة وسط غابة موحشة، أجزاء قليلة متفرقة من خيوط القمر استطاعت التسلل عبر الغيوم المجتمعة والهرب بعيدًا نحو الأسفل، لتحتضنها مياه البحيرة، تراب الأرض والصخور التي تملؤها وأوراق الأشجار التي تغطيها، لم يبقَ شيء من الطبيعة إلا وتلطخ باللون الأحمر، بعضها جف، وكثيرها ما زال يرشد الخائفين إلى الطريق الخاطئ ما دام ضوء القمر ينعكس عليه كل ليلة، بقي مختبئًا خلف الشجيرات المتراصة كي يحجب نفسه عن أنظار الحراس الذين كانوا يترصدونهم كالفرائس الحيوانية، لم يستطع التحكم في دقات قلبه وهي تتسارع بشدة، وهو ينظر مباشرة في عيني تلك الفتاة الشجاعة! تبًّا لي، لم أجد كلمة أفضل من هذه لوصفها، ها أنا أظلمها مجددًا، بقطع من القماش البسيطة المهترئة غطت جسدها الهزيل ورأسها سترًا لعفافها، لكن ذلك لم يشفع لها أمام سطوة البرد القارص أو هي التي لم تشفع له وراحت تتحداه هكذا، وعزة نفسها ووصايا دينها، وقطعة أخرى على ذراعها لتخفي جرحًا عميقًا لم تجد بما تداويه بها ولا وقتًا لتفضيه عليه.

بملامح بدت خالية تمامًا من أي مشاعر إنسانية، وعيون رمادية تسطع وسط الظلام، بدت متهالكة وكأن النجوم سقطت عليها مخلفة آثار حرق تحت جفونها، راحت تحدق نحوه هي الأخرى للحظات أخرى كانت أكثر من كافية ليتلقى ويفهم رسالتها -إياك أن تضيع هذا هدرًا- إنها غير خائفة منهم، من أي أحد، ومما سيحدث لها، من أنها لن تخرج من هناك حية، ومن أنها لن تعود إلى أخيها.

فكر وعزم الأمر في نفسه: «يجب علي إكمال مهمتي، أن أصل إلى البحيرة حتى لا تذهب تضحيتها هدرًا».

ومالت عيناها نحو اليسار قليلًا حتى استقرتا على شقيقها، والذي بادلها نفس الملامح ونفس النظرات، لم يبدِ أي ندم أو انزعاج من الأمر، واكتفى بهز رأسه دفعًا لها، وعيونهما تقطر شررًا من حرارة الحقد والكراهية نحو غريمهما، هكذا توادعا، وعادت عيناها إليه مرة أخرى، لكن بحدة وصرامة أقل هذه المرة، توقع أن يرى الآن بعض الدموع تنهمر من عينيها، لكن لا، نسي أن ينابيع عينيها قد جفت منذ زمن، ولم تعد أقسى المشاهد أو المشاعر قادرة على إسالتها مرة أخرى، وابتسمت ابتسامة خالية من أي مشتق من مشتقات السعادة، ابتسمت ابتسامة لنسمها -ابتسامة خام- ابتسامة تحتاج إلى الكثير من التعديل والضرب عليها لتصحيحها، هي ابتسامة أقسم في نفسه أنه لو اجتمع مائة بشري من الذين يعرفهم ما

استطاعوا تقليدها، ورسم مثلها، ثم استدارت واختفت بعيدًا عبر الظلام الدامس تحت رنين القمر.

***

- أعزائي الركاب! يرجى منكم تثبيت أحزمتكم استعدادًا للهبوط.

هذا الصوت أعاد عماد من حلمه الغريب المخيف، فوجد نفسه قد وقع تحت تأثيره حيث شعر بصعوبة في تحصيل الهواء إلى رئتيه، وكأن أحدًا قد أطبق عليه في غرفة مغلقة مع تعرق شديد على جبهته، أوقف مشغل الصوت في هاتفه ثم أسدل راحة يده على جبهته جر معها بعضًا من قطرات العرق، وعدل من جلسته آخذًا في تلاوة آيات من القرآن الكريم، ثم راح يطل برأسه من النافذة الصغيرة الدائرية بجانب رأسه نحو الساحة الإسمنتية الكبيرة في الأسفل متنهدًا بطريقة تذمرية.

***

داخل سيارة الأجرة البيضاء الصغيرة المتدهورة كل جنباتها الخارجية والداخلية، لم يكن هم عماد الكبير هو نفس الهم الذي قد يغشى كل زائر لبلد جديد غريب عنه، أن يقضي طريق رحلته القصيرة محدقًا نحو البنايات المرتفعة، فندق فاخر، حدائق عامة، أو حتى لأزياء المارين على الأرصفة

أو مدى اهتمامهم بشوارعهم، أخرج هاتفه وراح يتصفح بعض المقالات المسجلة مسبقًا، مقالات عن بورما كونها واحدة من دول شرق آسيا التي تعرف بجمهورية ميانمار على امتداد خليج البنغال، والتي تقع في الجهة الشرقية من الصين ومن جهة الشمال الغربي تقع بنغلادش حيث هو حط قبل قليل وحيث هو متواجد تمامًا، وكذلك الهند أيضًا، وهي من الدول المشاركة في حدود تايلاند ولاوس، وتمتد من الجهة الجنوبية حتى خليج البنغال والمحيط الهندي بذراعها حتى الجنوب الشرقي من شبه جزيرة ملايو.

كانت بورما تابعة لحكومة الهند البريطانية التي تتألف من مجموعة ولايات هي: شن، كابا شان، وكاشينو بورما، حتى حصلت على استقلالها لتكون مستعمرة من قبل بريطانيا فقط عام ١٩٣٧ م، وفي عام ١٩٤٨ حصلت ميانمار على استقلالها التام عن بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية بعد صراع بين اليابان وبريطانيا على ضمها، وبسبب الانقسام الداخلي للعرق داخل المنطقة بين موالي ومخالف لكل من اليابان وبريطانيا تكونت الفرق التي تجعل المنطقة خاصة بأهل بورما، ونجحت في الحصول على الاستقلال بعدها، وما زالت المنطقة تشكل تعددًا للأعراق نتيجة للعناصر المكونة للدولة، أما لغة البلد الرسمية فهي البورمية مع وجود عدد من اللغات حسب العرق، أما بالنسبة لحال المسلمين في المنطقة فتوجد أقلية لا تتعدى العشرة بالمائة من عدد السكان الكلي الذي يفوق الخمسين

مليون نسمة، ويعاني الإسلام في مناطقه الكثير من التشريد والاضطهاد والتاريخ على امتداد أكثر من خمسين سنة شاهد على الأحداث المؤلمة التي عاشها المسلمون من حرق وتعذيب وظلم بغية تفريقهم، والحد من انتشار الإسلام مما دفع بكثير منهم للمهاجرة بعيدًا خارج وطنهم للمحافظة على حياتهم وسلامتهم.

ويقول زعماء الجالية المسلمة (الروهينجا) والأكثر اضطهادًا في البلد بأن أصولهم تنحدر من جذور عربية وتركية وبنغالية، ويرجع وجودهم في المنطقة إلى القرن الخامس عشر، بينما تعتبر الحكومة البورمية أنهم قد وصلوا إلى بلادهم خلال الاستعمار البريطاني خلال القرن التاسع عشر، وتعتبرهم مهاجرين بنغاليين غير شرعيين مع أن لغتهم هي خليط من البنغالية والفارسية والعربية، وهم من ناحية الشكل أشبه بسكان شبه القارة الهندية، غير أنهم في سلوكهم لا يختلفون عن السكان البوذيين، ويرتدون الزي الوطني (اللونجي)، ويتحدثون البورمية ويفهمون التاريخ والحضارة البورمية.

وكانت أوضاع المسلمين في البلاد قد تدهورت منذ الانقلاب العسكري الذي قاده الجنرال «ني وين» عام ١٩٦٢م، حيث اتجهت الدولة منذ ذلك الحين إلى طرد المسلمين من الوظائف الحكومية والجيش.

وفي عام ١٩٨٢م ألغى قانون أصدرته الحكومة الجنسية البورمية عن أقلية الروهينجا المسلمة، وبعد أكثر من ٣٠ عامًا من الاضطهاد، لم يبقَ في بورما سوى أقلية قليلة من المسلمين في بلد يزيد عدد سكانه عن الخمسين مليون نسمة معظمهم من البوذيين وأقليات أخرى من المسيحيين والهندوس وغيرها، حسب إحصاءات نشرتها إحدى الصحف الفرنسية، فيما اعتبرتهم الأمم المتحدة أكثر الأقليات العرقية اضطهادًا في العالم.

وفي يونيو ٢٠١٢ اتهم شخص من الروهينجا باغتصاب امرأة بورمية فكان ذلك نقطة انطلاق حملة تطهير عرقي في أركان (راخين) المنطقة التي تقطنها أقلية الروهينجا الواقعة بالشمال الشرقي.

وقد تحركت بعض المنظمات غير الحكومية للقيام برد فعل اتجاه ما يحدث من اعتداءات ضد المسلمين أبرزها منظمة «هيومن رايتس ووتش» لتتهم النظام البورمي وعددًا من الرهبان البوذيين بالمشاركة في الجرائم التي تقام في البلد ضد الإنسانية أو الأقلية المسلمة، لكن كل الاتهامات الموجهة إلى الحكومة البورمية لم تتعد كونها حبرًا على ورق، فما الذي ينتظره المتهَم إذا كان القاضي صديق المتهِم.

لكن في أكتوبر عام ٢٠١٦ قامت جماعة مسلحة تطلق على نفسها اسم «جيش إنقاذ الروهينجا في أركان» بشن سلسلة من

الهجمات على مراكز للشرطة البورمية، ما دفع الجيش إلى تنفيذ عمليات واسعة، ويقول الجيش إن أغلبهم من المقاتلين الروهينجا حسب إحصاءات نشرتها وكالة الأنباء الفرنسية.

«جيش إنقاذ الروهينجا في أركان» المعروف حاليًّا باسم «حركة اليقين» هي مجموعة تقول أنها حملت السلاح للدفاع عن الحقوق المنتهكة لأقلية الروهينجا المسلمة، مجهزة بسكاكين وسواطير بسيطة.

وعناصر هذه المجموعة التي كانت بالكاد معروفة قبل الموجة الأولى من الهجمات التي شنتها في أكتوبر ٢٠١٦، أصبحوا أكثر احترافًا في الأشهر الأخيرة، فقد باتوا خبراء في شبكات التواصل الاجتماعي من خلال نشرهم لأشرطة فيديو وبيانات نفوا فيها الاتهامات التي يوجهها لهم الجيش البورمي على حسابهم الرسمي على (تويتر) والشخصية المرموقة في «حركة اليقين» هو القائد عطا الله الذي يظهر في أشرطة الفيديو عند تبني عمليات عسكرية ضد المجرمين البوذيين القتلة.

-٢-

توقفت سيارة الأجرة أمام أحد الفنادق المتواضعة بالمدينة والذي بدا وكأنه ملجأ أكثر منه فندقًا لتواضعه المغالى فيه.

نزل عماد من السيارة متوجهًا نحو مكتب الاستقبال، وقد ركبت ظهره محفظة بنية من القماش الصلب تهتز مع كل خطوة، طلب غرفة لشخص واحد ثم استلم المفتاح، ولم يُضِعْ الكثير من الوقت أمام ملامح الرجل الهشة حتى كان يخطو آخر خطواته أعلى السلم إلى الطابق الثاني، استلقى على السرير على بطنه كطفل صغير خاض مسافة كبيرة من الركض وراء الكرة وغاص في نوم عميق.

ولما فتح عينيه بعد أربع ساعات من استلقائه على السرير رفع رأسه المثقل متكلفًا، ومشى إلى النافذة الصغيرة يطل منها، ولم يكن غير الظلام في استقباله، فقد مالت الشمس منذ فترة، واختفت خلف الجدران المخروطية الكبيرة أظلمت الدنيا على إثرها، رفع سماعة الهاتف وطلب شيئًا من الطعام ليسكت به آهات بطنه، وأثناء ذلك راح يستغل غياب المضيف

في الوضوء وقضاء ما عليه من دين الصلوات التي أخّرها أثناء الرحلة وأثناء نومه.

ولما حضر الطعام كان قد قام عن السجدة الأخيرة، فتوجه إلى ركن آخر وضم رجليه خلف الأطباق إلى بعضهما وتناول شيئًا يسيرًا على عجل، ثم دفع بالباقي إلى زاوية أخرى، وجلس إلى مكتب صغير واضعًا أمامه بعض الأوراق البيضاء آخذًا في تدوين بعض الملاحظات الهامة.

«مرحبًا، هل لي بسؤال؟»

«ترى هل يمكنك أن تضع القلم جانبًا للحظة؟»

«لا»

«حسنًا... كنت أريد إخبارك عن مدى التشابه بين الأمرين».

«بين من ومن؟»

«بين ما حدث للنبي يوسف وما يحدث لهذا الشعب المسكين».

«عن أي تشابه تتحدث، أنا متعب جدًّا، علي أخذ قسط من الراحة، فأنت تعلم جيدًا أنني قد لا أحظى بفرصة أخرى كهذه».

رتّب الأوراق فوق بعضها ورمى القلم عليها ثم عاد وارتمى على السرير وغط في نوم عميق...

نم، نم جيدًا! ولا أحد يلومك على هذا، بل لك كل الحق في هذا، على كل كنت أريد محادثته عمَا يحدث له، هل هي صدفة أم هو شيء قادته الوقائع إليه، عن حفظه سورة يوسف من كثرة الاستماع لها، دون الجلوس إلى المصحف وتقليب مواضع صفحاتها، عن ذلك الغضب الذي في قلبه، عن الأسف، عن الحزن الذي منع عنه النوم سابقًا لساعات طويلة كلما حل الظلام.

عن مدى التشابه بين النبي يوسف وهذه الأقلية المسلمة، بين إخوته الأسباط وبين إخوتهم من الدول العربية المسلمة.

عن الفارق الوحيد بينهم، بين كون النبي يوسف من أخرى غير أمهم، وبين كون تلك الأقلية ذات ملامح أخرى غير العربية، وهل كانت أم واحدة لتقتل تلك الغيرة في قلوبهم، أم هل إن تطابقت الملامح والألوان، جنسياتهم ولغاتهم وكانت واحدة، هل كانت لتشفع لهم أمام إخوتهم، ليتمردوا على خسيس معتقداتهم، آمالهم، حبهم لرغد الحياة والتغاضي عن أول اهتماماتهم، لا... لا أظن ذلك أبدًا.

يكفي أن ننزل قليلًا عن الخارطة ثم نتجه نحو اليسار قليلًا لندرك أن الجواب الحتمي لهذا السؤال لا يتعدى كونه «لا» مع توكيد كبير عليها...

***

أربع سنتمترات عمقًا، أحدثت شقًّا واضحًا في صدره، فوق قلبه تمامًا، سالت دماؤه العفنة على تراب لطالما كان طاهرًا بطهارة من يدوس عليه فلوثته.

«كان يجب علي أن آخذك إلى أحد المراحيض، وأشرب دمك هناك حتى يذهب ما تبقى منه داخل البالوعة، فلا تتلطخ أرضنا بدمك العفن»... كذلك قالت الآنسة شالينا بغضب وهي تعض على أسنانها، كصقر نشب مخالبه في أفعى، فراحت تتلوى يمينًا وشمالًا طالبة الخلاص في غير ما جدوى، فراح يضغط على مواضع المسك بقوة وأكثر شدة، طالبًا المزيد من الألم والعذاب لها.

وراحت تدفع بالسكين الصغيرة وتغرسها نحو قلبه بكل ما مدَتها ذراعيها الرقيقتين من قوة دافعة، بعيون تتطاير من شرارات حمراء وملامح طبعت من على وجه نمر أفريقي طاله الجوع أيامًا كثيرة، ولما وجد لنفسه فريسة، تهلل وجهه طربًا، ففعل وافتعل فيها الكثير والقليل، بعينيه قبل مخالبه، بنظراتها قبل سكينها، لكمات أخرى على رأس الجيفة -كما ارتأت أن تسميها هي- لتفرغ آخر شحنات الغضب من قلبها قبل شروق الشمس وطلوعها.

«شالينا، أرجوك توقفي، هذا يكفي»... كذلك قال أحد الواقفين عند رأسها منبها وآخذًا في جذب ذراعها «نحن مسلمون ولا يجوز لنا التنكيل بالجثث هكذا، لقد مات الرجل،

تحكمي في غضبك قليلًا ولنغادر قبل أن يصل الجنود إلى هنا...»

ونزعت سكينها بحقد واضح مبالغ فيه، وهي تحركه بعشوائية أثناء سحبه أملًا في أن يبلغ الألم روحه الميتة، من أجل كل دمعة نزلت، صراخ طفل، أو جوع امرأة أحنت ظهرها إلى الأرض كدجاجة تبحث عن حبات قمح، دودة، أو بقايا أكل أو أي شيء قد يسكت كتلة اللحم الصارخة على ظهرها.

أعادت السكين إلى رقبة الجثة، واقتطعت قطعة قماش حمراء كان الميت قد لفها حول رقبته كتصريح يظهر مدى صلاحية أفعاله أينما حل وارتحل، كلما مشوا طريقًا أو سلكوا دربًا يعيثون فيه فسادًا، كانت قطعة القماش تلك تشفع لهم وتعطيهم كامل الصلاحية.

قامت عنه وتبعت «توبو» تسارع الخطى نحو معترك من الأغصان والأوراق المتشابكة واختفوا بعيدًا داخل الغابة.

***

صباح اليوم التالي كان عماد واقفًا عند مدخل الفندق على الرصيف ينتظر وصول سيارة الأجرة التي كان قد طلبها قبل دقائق تجاوزت العشرين بأربع وقليلًا، ولم ينتظر بعدها إذ وصلت مركبة بيضاء صغيرة ذات أربع عجلات قديمة الطراز هشة الجوانب وتوقفت أمامه مباشرة، فأسرع إلى

الباب يفتحها، ولم يحدث له ذلك إلا بعد أن تلقى مساعدة صغيرة من قائدها صاحب الابتسامة الصفراء المعوجة، ورمى المحفظة ذات البطن الكبيرة على المقاعد الخلفية ثم دلف يتبعها، ولم يكن داخلها أفضل حالاً من خارجها، لكن لا وقت لذلك، ألقى عنوان وجهته إلى السائق وأطلق زفرة عظيمة...

خمس وعشرون دقيقة مضت مذ أن غادرت السيارة الشاحبة شحوب المريض ساحة الفندق الفارغة، ومنذ أن دخل عماد في متاهة من الأفكار آخذًا في مدها بالمزيد والمزيد من الخطوط المتداخلة، فيما راح السائق يراقبه عبر المرآة المثبتة فوق رأسه بنظرات متقطعة مقسمة بين الطريق وبينه، ثم فجأة وكأي سائق أجرة آخر شديد الملل والفراغ فؤاده فضولي زيادة عن اللزوم راح يفتح حوارًا بينه وبين زبونه على الرغم منه، وبتلك العبارات المترهلة المعتادة نفذ قائلاً: «هل أنت صحفي يا سيدي؟» فيما كانت عيناه ما تزالان مثبتتان على المرآة الصغيرة.

وجَه عماد وجهه بعيدًا عن المناظر الخضراء المسرعة خلف زجاج النافذة آخذًا بها نحو المرآة أيضًا، لتستقر على عيون السائق الطينية الضيقة، وتلا مجيبًا ببرودة: «لماذا؟ هل أبدو كذلك!»

ابتسم السائق متحفزًا متفائلاً بأن الحوار سيطول قليلاً بينه وبين زبونه المتشائم: «لا... لكن لهجتك الإنجليزية، وأنت

تخبرني عن وجهتك جعلتني أتذكر بعض الزبائن الغرباء الذين جاؤوا لالتقاط الصور في تلك المخيمات وحتى العبور أبعد من ذلك، لكن معظمهم عادوا خائبين في النهاية».

«لماذا؟» قال عماد، ولم يزد عن ذلك.

وتحولت عيون السائق وهدأ حاجباه وكأنه أوقع في نفس الزبون ما أراد وحقق نصرًا آخرًا لنفسه البائسة: «ولا تسألني لماذا! لأنني لا أريد أن أفسد عليك متعة الرحلة، اذهب واكتشف ذلك بنفسك!»

وتحركت العضلات المساعدة على العبوس في غير ما تردد لترسم ذلك الشحوب المبدئي على وجه عماد، غير أنه ولأنه لا يحب الحديث كثيرًا، وبعد مرور لحظات ولحظات من التحديق المتبادل نحو المرآة الصغيرة أشاح بنظره بعيدًا خارج النافذة، وألقى به على المروج الخضراء والسحب البيضاء الضاحكة، وذلك ما بث في نفس السائق شيئًا من الغيظ اعتراه بعدما قرر زبونه الكف عن محادثته.

والحقيقة الأخرى هي ومع أن عماد كان يعلم مسبقًا ما الذي قد ينتظره في نهاية الرحلة إلا أن كلام السائق السعيد الغارق في ابتسامته قد بث في نفسه قلقًا وحيرة كان في غنى عنها...

***

على بعد كيلومترات وداخل كوخ خشبي صغير جلس العجوز السمين على طاولة صغيرة يعد بعضًا من قطع الخبز الصغيرة، ويرتبها بشكل عشوائي داخل سلة مصنوعة من القش اليابس، ولما انتهى من ذلك حمل السلة في يده ومضى نحو الخارج حيث استقبله مجموعة من الأطفال الصغار المتحمسين، أطفال قد تحولت أجسامهم واستحالت عظامًا بارزة تحت الجلود ترى من بعيد.

واصطف الصغار في خط دائري عشوائي وراحوا يهتفون أن «يا عم ضياء مدنا، يا عم ضياء مدنا» وكان الأخير يمر عليهم واحدًا واحدًا ملقيًّا في كل يد صغيرة قطعة من الخبز بالكاد تملؤها، طفقا بهم مسحًا على الرؤوس بعدها، تاركًا إياهم في سعادة غامرة لو وزعت على أهل الأرض لاستفاد الكثير منها.

كادت الشمس تتوسط عنان السماء ولا زال الرجل يتجول بين الأطفال يطعم هذا ويمسح على رأس ذاك ويبتسم لآخر، ولما كانت سلة القش قد امتلأت بالهواء عن آخرها، واشتكت قدماه وجعًا استدار مودعًا حزينًا، وذلك أن بعضهم لم يكن لديهم ذلك الكم الكبير من الحظ الجميل الذي مكن أقرانهم من العودة إلى أمهاتهم سعداء، فعادوا بقطع من الحزن والجوع والدموع إلى أمهاتهم، تمامًا كما عاد العجوز السمين إلى كوخه، وألقى نفسه في حضن الكرسي المتأرجح خاصته، مثقلًا بآلام تسع الكثير من البشر، ليفيض ما زاد عن حدود

تحمله في شكل عبرات ساخنة عبر وجنتيه السمينتين، وكان قبل ذلك قد ألقى بالسلة بعيدًا إلى زاوية أخرى.

***

بعد ساعتين من الجلوس داخل علبة الصفيح تلك وصلوا أخيرًا إلى مبتغاهم، لكن معدَة عماد لم تكن بذلك الخير الذي كانت به معدَة السائق إذ شعر الأول بأن أمعاءه قد اختلط بعضها مع بعض وأن أحشاءه فقدت شيئًا من تماسكها لكثرة ما اهتزت على طول الطريق الوعرة المليئة بالحفر والحجارة المزروعة، وانتهت الطريق أخيرًا، ولم يستسغ عماد الحديث كثيرًا بعد نزوله من علبة الصفيح تلك، إذ فهم السائق تجاهله جيدًا واختفى بعيدًا في طريق جانبية يبحث عله يجد شخصًا آخر يؤنس وحدته في طريق العودة، وابتعدت عينا عماد عنه في صمت كئيب أوجبه المكان والزمان على الرجل طوعًا وكرهًا، فهز ظهره ليعدل وضع الحقيبة فوقه، ثم نظر إلى السماء يمينًا وشمالًا، ثم إلى الوراء وراح يدفع برجليه نحو الأمام خطوة تليها خطوة أخرى.

ـ ٣ ـ

وبعد مسافة كيلومتر من المناورات الهزيلة التي قام بها عماد على طول الطريق الترابية المحصورة بين جانبين من الحشائش القصيرة محاولًا تجنب حفر المياه المنتشرة على طوله، انتهى به الطريق إلى حافة بحيرة واسعة من الطين والأوساخ المائعة، يحيط بها مجتمع من البيوتات القصديرية والخشبية، ومنها ما هو أربعة أعمدة واقفة ترتدي ستارًا من الحصير الأسود.

هكذا كانت منازل النازحين، هكذا هي مخيماتهم، وهذا أحدها، لن نذكره بالاسم، لكنه أحدها، ولم يكن عماد بحاجة للكثير من الذكاء كي يخبر نفسه بأن أمطارًا غزيرة قد هطلت منذ فترة ليست بالبعيدة، قِطع الوحل المتواصلة التي لا تنتهي منتشرة في كل مكان، فضلات وأوساخ تأخذ أجزاء كثيرة من حيز المشهد، قوارير وقطع أخرى من البلاستيك، وأطراف خشبية، وشيء من كل شيء، بعوض وحشرات سامة تتطاير في غير منتهى من المرح والسعادة، كان المخيم ولم ولن أجد

له وصفًا أصدق وأجمل من هذا -وليأخذني الله إن تجاوزت في وصفي هذا حدود الجماد من المشهد- يشبه إلى حد بعيد زريبة حيوانات بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ تسقط أحرفها على الجماد المشترك بين المشهدين ليس إلاّ، فلا أقصد ولا يمكن أن تجركم أنفسكم إلى الاعتقاد بأن هذا الوصف يمكن إسقاطه على الخراف أو البشر أيضًا، غير أن الثانية للخراف والأولى يقطنها البشر، هكذا وكل هذا تضمه غابة شريدة من بعض جوانبها المديدة، وهكذا نجد أن المكان يميل أمره إلى الزريبة أكثر منه إلى مكان يصلح للبشر، ولنقل أن بعضًا منهم رفع لنفسه خيمة صغيرة من الكتان الأحمر على جوانب الطرقات وبين حقول الأرز الصغيرة، ولما اقترب عماد ما يكفي وما مكنه من الاختلاط مع الناس داخل المخيم، راح الجميع يرمقونه بنظرات مدهوشة، فكان واضحًا لعيانهم أنه زائر غريب عن المخيم، زائر يمكن تصنيفه، وبعد ذلك التدقيق البسيط من الأعلى نزولاً نحو الأسفل أنه يشبه إلى حد بعيد أولئك الذين يأتون من بعيد من العالم الآخر، فيحضرون معهم بعضًا من تلك الأشياء التي يمكن تناولها، كتأشيرة دخول يحضرونها معهم، وعماد كان يبدو مثلهم بسرواله الساقط لونه بين البني والأصفر والمعطف البني وحذاء أسود شديد التماسك يرتفع عاليًا وتحت حدود منتصف ساقيه الطويلتين، لكن هذا الغريب لم يحضر معه طعامًا هذه المرة، وإذ دخل إلى المخيم عنوة من غير تأشيرة دخول فقد كان ذلك حجة

وذريعة ليحظى لنفسه ببعض الإحراج المحتمل، لكن محفظة الظهر التي تمتطي ظهره أعطت خبرًا غير ذلك، ولم تحمل ما تشفع به لصاحبها أمام ابتسامات الأطفال الذين التفوا حوله مادين أيديهم متمتمين بكلمات خفيفة لم يتعرف على أي منها، مسح على رؤوس البعض وقبل آخرين ومضى في طريقه.

ولما كان قد سار عدة أمتار بعيدًا عن الإحباط الذي تركه هناك متجسدًا في شكله، إذ برجل قصير القامة أسمرًا، ذي عينين واسعتين ذابلتين في محجريهما، وقليل لحية بيضاء قد توسطت ذقنه العريضة يعترض طريقه في شيء من الفضول بات واضحًا في وجهه، فتوقف عماد في مكانه ساكنًا دون أن يأتي بأي حركة وذراعه ما تزال ملتصقة بالمحفظة، وإذ به يطلقها للراحة أو لذلك الخوف الذي اعتراه في اللحظة التي ثبتت عيناه على الرجل، لكن الرجل ومن المؤكد أنه قد فعل ذلك مهدئًا، راح يتقدم نحو عماد بعدما فضح نفسه بابتسامة عريضة أتبعها بكلمات عربية:

- مرحبًا يا سيدي! هل أنت تائه هنا؟

فرد عليه عماد بعدما ذبلت دهشته وذابت في ابتسامة للمبادلة:

- مرحبًا، نعم قليلًا... يمكنك قول ذلك حتمًا...

وكان الاثنان على وشك فك أيديهما وإنهاء عملية المصافحة، تلتها جمل من التعارف بعد ذلك وهذه بعضها: «أنا بخير يا سيدي... شكرًا لك!»

وابتسم الرجل بسعادة أكبر هذه المرة، وبادله القول قائلًا:

- لا بأس نحن بخير، محمد ياسين، اسمي هو محمد ياسين... (مع هزات رأس يتميز بها سكان هذا الجزء من الكرة الأرضية) هل لك أن ترافقني قليلًا من فضلك! (كذاك أضاف الرجل بعدها).

وقال عماد بحماسة شديدة حاول قدر المستطاع إخفاءها:

- وأنا عماد، تشرفت بمعرفتك يا سيدي!

وراح يتبعه بعيدًا نحو متاهات أخرى، وكانت الشاشة الواسعة تعرض مواصلة نفس المشاهد تقريبًا، نساء ورجال وأطفال وكبار السن في كل بقعة يمكن مد البصر نحوها، خلف الأكواخ وبينها، فوق الصخور وتحتها، على الطرقات يجلسون يتبادلون الهمهمات والهموم، والمآسي والأحزان، رجال معظمهم لم يجدوا ما يغطون به الأجزاء العلوية من أجسادهم الهزيلة، وليس أكثر من قطع قماش مهترئة وسراويل قديمة تغير شكلها ولونها تغيرًا واضحًا مغالى فيه، وخاصة رائحة عطرها، هي ما يحفظون به ما تبقى من كرامتهم، وليس شغلهم أكثر من رفع سقف بيت صونًا عن سقوطه، أو مسح

دموع طفل صغير عارٍ، أو حمل حزمة من الحطب المبتل والتوجه بها نحو زوجة مسكينة جائعة بائسة.

أما النساء فلم يكنّ يحملن سوى الصفات الأساسية للنساء، كونهنّ إناثًا، وذلك أن امرأة مرت أمامهما تحمل جرة ماء فوق رأسها تترنح بين السير والسقوط بأقدامها الحافيتين وسط حقول الوحل الأحمر، وأخرى منهمكة في تنظيف قطع السمك المتحركة، وأخرى في سلخ الأرض بقطعة بلاستيكية محاولة إبعاد تراكمات الوحل عند مدخل قصرها، وأخرى قد اختفت وسط سحابة من الدخان الأسود الخانق، في محاولة يائسة لنشب نار تحت حطب مبلل، وتلك غارقة في قلق وفير بسبب الجفاف الذي أصاب نهديها، وانقلبت أضراره حتى صغيرها الصارخ وهو مختبئ في حجرها، وأخريات جلوس بعيدًا منهمكات في عدم فعل أي شيء سوى المراقبة، ومراقبة ذلك الفراغ الهائل المتربص بهن، وكان صراخ الأطفال وبكاؤهم وأنينهم يتسرب في ضراوة شديدة إلى أذن عماد التي لم تستسغ ذلك الشعور كثيرًا وهو يتساقط على طبلتها، إذ أن صراخهم لم يكن كصراخ ابنته «سلوى» عندما كانت صغيرة، كان هذا مختلفًا، ولأسباب مختلفة، وبعضهم غارق في ضرب من النوم المتقطع بين ضجة وأخرى، وبعضهم يجالس بقايا سمك على صحن صغير أو حفنة أرز رديئة كرداءة كبد الحوت الأزرق، وآخرون يركضون في الأنحاء ضاحكين لأول قطرات المطر.

ولما كانت السحب قد بدأت تعصر فجأة، قطرات قليلة معدودة، كانا قد وصلا إلى ذلك المخدع الصغير، أزاح محمد ياسين الستارة السوداء عن المدخل ودلف متممًا لصاحبه بشيء من الاعتذار المبتذل، وكذلك تبعه عماد معتذرًا إلى زوجة أخيه عن أي استضافة قد تفكر في محاولة القيام بها هي الأخرى وإتعاب نفسها، فاعتذرت هي الأخرى بدورها وغادرت بيت الأسرة الصغير لتقضي بعضًا من وقتها الثمين مع إحدى جاراتها، فيما جلس الاثنان حول نار حمراء تم احتواؤها داخل حفرة من التراب صغيرة تتوسط غرفة المنزل وكل المنزل.

ولما انقضت بعض من الثواني الأخرى كان الرجل قد انتهى من تفحص حزمة الحطب المركونة في زاوية قريبة، جذب منها تلك العصا التي جعلته يستهلك تلك الثواني المذكورة سابقًا في البحث عنها، وراح يمد ذراعه نحو النار يداعب الجمرات الحامية حتى اشتد لونها ولهيبها، وقال بعدها مغمغمًا:

- منذ رأيتك أول مرة، تمكنت من أخذ فكرة كبيرة عن السبب الذي جعلك تعدو إلى هنا، وها أنت ذا تؤكد لي ظنوني بكلامك هذا، وإني لأقدر لك جميل صنيعك هذا، كلنا نفعل ذلك، لكن لا تظن بأن هذا الأمر سيكون سهلًا عليك، بل إنك قد تعرض نفسك لخطر حقيقي هناك.

وتحرك عماد معدلًا جلسته ومتنهدًا وقال بعدها:

- ولهذا أريد أن آخذ منك فكرة عما يمكن أن أواجهه خلف النهر.

وتنهد الرجل بدوره معدلًا ملامحه بعد نسفة صغيرة على الحطب:

- توقع كل شيء، أي شيء سبق لك وأن شاهدته على التلفاز أو قرأته في إحدى الصحف يمكن أن تراه أمامك مباشرة، أو حتى أن تجربه بنفسك، كثيرون حاولوا فعل ذلك، لكن القليل منهم نجح فيه، هناك تعتيم إعلامي واضح على ما يحدث هناك، وسيتم طردك في أيما لحظة عرفوا فيها سبب زيارتك غير المرغوب فيها، فالأبواب مغلقة أمام الصحفيين إلا في حالات نادرة أو تسربات من الداخل نحو الخارج، فهم يريدون أن يبقى ما يحدث هناك داخل حدود البلد يريدون ممارسة القتل على المسلمين بحرية تامة ودون تدخل أي أحد في أعمالهم، وكأننا حفنة من النمل عثر عليها طفل في الرابعة، يمكن أن ترى أمورا ما كنت لتصدق بوجودها لو أنك لم ترها بعينيك لحظة وقوعها، فمثلًا يمكن وببساطة أن ترى بوذيًّا يركض وراء روهينجي مسلم حاملًا في يده ساطورًا كبيرًا مع صرخة هستيرية يمرّان أمام عسكر البلد وهم يحاولون إمساك بطونهم من شدة الضحك، ومشاهد كهذه

لن يسمح لك بحملها معك هكذا والمغادرة ببساطة، صحف، ومجلات، وهيئات حاولت التعمق في الأمر، لكن تم اعتراض طريقها ولم يسمح لها بذلك...

- وكان شحوب واضح قد ران على وجه عماد، وهو يسمع ذلك الطرح المحبط، وأخذ يمسح وجهه متوهمًا أن شيئًا عليه، لكن ذلك لم يتعدَّ كونه قشعريرة باردة سرت على جسده، فجمع أفكاره قائلًا:

- ليحدث ما يحدث، فلقد عزمت على الأمر قبل وصولي إلى هنا ولا رجعة في ذلك، كل ما أريده منك الآن هو أن تدلني على الطريقة المثلى لكي أصل إلى ضفة النهر المقابلة غدًا.

- لا تقلق، فذلك عندي. (كذلك قال الرجل وزادها بحركة صغيرة من عينه مطمئنًا): «لكن ذلك لن يتم لك مجانًا».

ولما وافقه عماد على شرطه الصغير تابع الرجل قائلًا:

- هنالك طريقتان للوصول إلى تلك المنطقة، طريق ترابية طويلة تعبرها سيرًا على الأقدام لمسافات وساعات طويلة، وهي خطيرة جدًّا، ذلك أن العساكر قاموا بزرع ألغام في الأراضي على امتداد الأسلاك الشائكة لمنع اللاجئين من العودة، وكثيرًا ما سقط بعضنا خلال الطريق، وحالت أوضاعهم دون وصولهم سالمين إلى

هنا، منهم من مات ومنهم من فقد أجزاء من جسده وتركها على الطريق لتنهشها الذئاب والضباع، وحتى أن بعض النساء الحوامل وضعن أطفالهن على الطريق وفي تلك الظروف القاسية. (ولما كان قد أخذ نفسًا طويلًا أتبع حديثه قائلًا): أما الطريقة الثانية فلا تقل خطورة عن الأولى، ذلك أن كل من لم يحالفهم الحظ لإتمام رحلتهم كان مصيرهم الموت ولا حل آخر، وذلك من خلال عبور النهر على ظهور قوارب صيد خشبية بسيطة أودت بحيوات العشرات من النازحين، وجعلت منهم طعامًا للأسماك، كما أن بعضهم حاولوا استغلال ظلام الليل والعبور سباحة، وطبعًا لا ينجح الجميع في ذلك، وقد يأخذك العجب بعيدًا لغرابة ما تسمعه، لكن ما يلاقونه هناك من ويلات العذاب ومن اضطهاد مرير أجبرهم على التمسك بأي حبل نجاة وجدوه وأي فرصة سانحة للهروب من ذلك الجحيم مهما كانت صغيرة أو حتى خطيرة، أضف إلى هذا أن بعض المنتهزين من أصحاب القوارب وبعد أن يحصلوا على نقودهم يرغمون اللاجئين على النزول من القوارب وإفراغهم بعيدًا عن ضفة النهر ليكملوا المسافة المتبقية سباحة، على كل حال، حاول أن ترتاح هذا اليوم، ولسوف نجد لك غدًا قاربًا ذا ثقة يوصلك إلى هناك.

وأحسن عماد في شكره كثيرًا بعد هذا، ولما أراد الرجل أن يضيف شيئًا آخر من الكلام المصنوع صنعًا، قاطعه صوت المؤذن وحال دونه ودون ذاك، فقام الاثنان عن حلقة الجمر التي برد حرها، وبهت لونها، واستحال إلى الأبيض والأسود الصامت، وخرجا يتوجهان نحو المسجد.

***

ولما انتهت صلاة العصر والتزم كل مكانه يؤدون الأذكار التي تقال دبر الصلوات، وعلى الأرض كانوا يجلسون، بعضهم افترش الحصى وبعضهم أوراق الشجر، وهكذا كان مسجدهم، وما أجملها من صلاة على وقع القطرات.

وما كادت تنقضي الدعوات حتى اخترق الجو سهم من صراخ مبحوحٍ متقطع ملأ أرجاء المسجد المفتوحة، وكان يحمل في نبرته شيئًا من خدشات الجوع تتخلله تقطعات تنم عن سعادة من تهلل وجهه فجأة، وكل هذا لم يلتقطه إلى أصحاب الوجوه السمراء الشاحبة، حيث قام الجميع عن أماكنهم وأسرعوا يهرولون عبر الطريق التي جاءت بهم إلى هنا أول مرة، بينما جلس من ليس له قدرة على فهم تلك الكلمات المبحوحة في مكانه حتى آخر الأمر، ثم قام بمفرده وبهدوء بعدما أفرغ المسجد عن آخره، وأخذ يمسح ثيابه مما عليها، وراح يحذو حذوهم نحو مصدر الصوت، وقادته خطوات ركيكة في غير ما عجل إلى حشد كبير من الجياع والعرايا

والمرضى الذين تجمعوا أمام شاحنة بيضاء عملاقة تتوسط مقصورتها الطويلة دائرة حمراء صغيرة تحتوي نجمة وهلال أحمرين قد توسطت ساحة الطين الكبيرة، وبين كل ذلك تصاعدت النوتات الصوتية المزدحمة بين صرخات وأنين، سعادة وابتهاج، أمل ويأس، افتقار وحاجة، والكثير من البرد والبلل والقليل من الاكتراث به لما كانت أجسادهم قد اعتادت على أكثر من مجرد قطرات من المطر تنساب على أجسادهم العارية، والكثير من البشر وقليل من أوصاف البشر، الكثير من الأشياء المتضادة التي اجتمعت هناك، وسط المخيم وحول الشاحنة التي شرعت أبوابها بينما اعتلاها شباب وأخذوا في توزيع محتوياتها.

وكان عماد قد وقف بالقرب منهم يراقب كل هذا عندما اندفعت أصوات مزامير قوية نحوهم تلتها شاحنتان أخريان وتوقفتا بجانب الأولى، وكم خاب ظن عماد كثيرًا لما كانت تحملان نفس العلم المرسوم على الأولى، تأسف كثيرًا، توقع أن يجد ألوانًا أخرى أيضًا، وكم تمنى لو رآها، مثل التي اعتاد كثيرًا على رؤيتها، وأيقظه من نومته الفكرية دفع أذرع شديد جاءه من الخلف، وإذ بها جموع أخرى قد وفدت إلى الحفلة في غير ما حاجة لأي دعوة، وكانوا قد تركوا عماد يحاول استعادة توازنه ومنع نفسه عن السقوط لما تلقاه من ضربات غير متعمدة، وعندما استقر مكانه لاحت نحوه يد خفية أمسكت به

فجأة وراحت تجذبه بعيدًا عن طريقهم، تلاها صوت خافت قائلًا:

- تعالَ معي، لنبتعد عن هنا قليلًا!

كذلك قال محمد ياسين وراح يجذبه نحو مرتفع ترابي يمكن من فوقه مشاهدة كل ما يحدث في الأسفل بدون التعرض لأي ضرب.

وعندما أعد محمد ياسين صخرتين للجلوس، وأخذا موقعيهما آخذان في مراقبة ما يحدث في الأسفل، بعفوية صامتة، وبرودة حزينة، قال المضيف بعدها:

- كما ترى، الجميع جياع هنا، جياع جدًّا، ذلك أن المخيمات قد امتلأت عن آخرها وأصبحت تعاني نقصًا شديدًا في أيما حاجة ضرورية قد يحتاجها أي إنسان لتجاوز ثمانية وأربعين ساعة، طعام، دواء لباس، مأوى، وحتى المياه، فعادة ما نشرب من برك المياه الآسنة، وليس لدي رغبة لإخبارك عما سيؤدي إليه ذلك، أترى؟! هكذا لأجل هذا يقطعون الفيافي والبراري والغابات لعشرات الأميال هائمين لا يدري أحدهم في أي أرض يموت، يسقط وهنًا أو مرضًا، أو تتناثر أحشاؤه على الأرض أو أن يصل إلى هنا معدومًا، فقط ليصلوا إلى مكان كهذا، ليفترشوا الأرض المبتلة،

ويلتحفوا سحب السماء الممطرة، هدفهم الوحيد هو الهروب من شبح الموت الذي يطاردهم وكأنهم وباء يجب استئصاله، وهكذا بعد أن امتلأت المخيمات عن آخرها، لجأت الحكومة هنا للعمل على إعادة بعض النازحين إلى أراضيهم، وكرد فعل على هذا -وكما أخبرتك- فإنه يتم زرع الأراضي الحدودية بالألغام للحيلولة دون عودتهم إلى أوطانهم...

ولما قال الكلمة الأخيرة صمت بعدها ووجه نقمه نحو أصابع يديه بعضها غيظًا وحزنًا وألمًا على ما يحدث لمن قال أنا مسلم، عندها هَمَّ عماد بقول شيء قد يخفف عن الرجل قليلًا، لكن محمد ياسين -وعلى ما يبدو فلم تكن لديه رغبة للاستماع لأي شيء حيث بدا وكأنه كان يخفي حزنًا عميقًا كعمق حنجرة أفعى حتى ذيلها، يخفي شيئًا أثار ضغطًا عنيفًا داخل صدره أوجعه بشدة لأيام وليالٍ متواصلة، ولم يجد بُدًّا من أن يحتفظ به لنفسه، ثم أعاد يديه إلى الأسفل فوق ركبتيه، وابتسم مع طلقة هواء ذات صوت خرجت من منخره قال بعدها:

- أتدري أكثر ما يؤسفنا هنا؟

وتنقلت عينا عماد من الشاحنة متوجهة نحوه في اهتمام فواصل الأول قائلًا:

- أننا لا نتلقى مساعدات تذكر من الدول العربية، أما المساعدات التي تصلنا فغالبًا مصادرها معدودة متكررة، الحكومة البنغالية، تركيا، روسيا، وبعض الدول الأخرى المجاورة، حتى أننا تلقينا مساعدات من فلسطين نفسها، مئات الأسر هنا استفادت من مساعدات مولتها تبرعات فلسطينية، إحدى الجمعيات كان اسمها «جمعية القلوب الرحيمة»، ومؤسسات أخرى غير حكومية قامت بتوزيع مساعدات نقدية وغذائية على العائلات، فيما اكتفى الآخرون بإصدار بعض الأصوات وإراقة بعض من قطرات الحبر على الأوراق.

وكان عماد يتلقف تلك الكلمات بمرارة لاذعة، وتقاطيع حارقة داخل قلبه حتى أنه وفي مرحلة ما قد شعر بخجل شديد، كونه ينتمي إلى ذلك الجزء من البشرية المتخاذلة عن أداء واجباتها تجاه إخوتها، إخوة عبر رابطة هي أقوى من رابطة الدم نفسها، هي أقوى رابطة يمكن أن تنشأ بين مجموعة من البشر، رابطة الدين الواحد، الدين الأصح المتفرد الأوحد، ولما كان الإخوة يتشاركون في قول: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله» كان أحد الأشقاء يقولها مبتسمًا غير مستشعر لعذوبتها، فيما يقولها الآخر وهو معلق على حبل المشنقة، أن يتشاركوا في حفظ كلمات رب واحد، من كتاب واحد، في صوم شهر واحد، في الضحك والتبسم في يوم واحد،

عبر الاحتفال بعيد واحد، هذا وغيره لم يشفع لهم ليكونوا إخوة كما تقتضيه القضية الكلمة، لم تفرق بينهم المسافات، لا البحار ولا الجبال ولا اللغة ولا اللون ولا العادات، وإنما فرق بينهم ولوع الأخ الأكبر بإشباع غرائزه على حساب أي شيء آخر قد يحول بينه وبين ذلك ولو قليلًا، هي شهوات بطونهم وفروجهم وجيوبهم التي لا تمتلئ مهما امتلأت...

لم يتمن الأخ الأكبر من حماية أشقائه الصغار الذين يبعدون عنه أمتارا معدودة، أو لم يرد ذلك، أو لم يفكر حتى في ذلك، فكيف له أن يتحرك لأجل شقيق أصغر يبعد عنه وراء البحار، حتى أنه اهتم أكثر بتوجيه لكمات موجعة إلى وجهه، وحال نفسه تقول: «لأضرب نفسي فربما أواسيكم حينها...» ولماذا؟ هذا الأخ يقول أنا في حاجة إلى بعض الكدمات حتى أستعيد نفسي، وماذا فعل؟ أخذ سكينًا وشرع يحدث جراحًا في قلبه، أمر مؤسف ومحزن إلى درجة تجعلك تضحك حتى تدمع عيناك، عن أصحاب البطون الكبيرة أتحدث، الذين يجتمعون في غرف خشبية يصدرون قرارات تليها قرارات هم متأكدون من أنها لخدمة البشرية، ثم يرفعون أيديهم عاليًا في النهاية، يرفعون ويطرحون ويغربلون ما صدر منها، ليخرجوا في النهاية إلى الشعوب المسكينة مبتسمين مهللين: «لقد وصلت أيدينا المرفوعة إلى دستور جميل مليح سوف ينقذكم»، والحق أنه لو اجتمع من البشر ما قدر لهم أن يجتمعوا لما استطاعوا أن يأتوا بدستور يرضي الجميع ويصلح حال المجتمع، وأنى

لهم أن يفعلوا ذلك بينما أنزل رب الكون دستوره لهم فرموا به بعيدًا إلى زاوية مظلمة -ربنا نحن أعلم بالأصلح لنا- هذا حال ألسنتهم، ولأستغفر الله على هذا، آه يا محمد يا رسول الله، سامحنا يا رب ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا...

-٤-

ذهبت الشمس واختبأت بعيدًا خلف الجبال كعادتها، حتى لم يبقَ من أثرها سوى خيوط رقيقة تسللت عنها واختبأت بين السحب مخلفة غمامًا أحمر لطيفًا زين جو السماء، وكانت قطرات المطر المبعثرة قد توقفت منذ مدة طويلة، وسكتت أصوات الجياع التي كانت تحتل الفضاء قبل سويعات قليلة، كل أخذ حصته ودلف سعيدًا إلى مخدعه يطعم أولاده، سكت كل شيء، وكان الظلام يهجم بسرعة خاطفة أتت على ما تبقى من حمرة في السماء، ومع ذلك كانت بعض الوجوه لا تزال عابسة، خائفة ومتذللة لنفسها، لكل من يمر ويعبر أمامها، وكأن شبح الموت يتجول بينهم يمر عليهم واحدًا واحدًا، ويمسح على وجوههم، فلا تكاد ترى ابتسامة إلا بعد عناء طويل من البحث بين الوجوه الهابطة، وجوه منهكة من كل شيء، لا شيء يدفعها للحياة في ظل تلك الظروف سوى من يعانون لأجله، الرب الذي في السماء.

وكما سبق القول فقد اختفى الأطفال وصراخهم، واختفت النساء أيضًا، أما الرجال فقد اجتمعوا في دائرة كبيرة رسموها بأجسادهم بعدما أوقدوا نارًا بينهم أضاءت وجوههم وأضاءت ما حولها، وجلسوا يتسامرون أوجاعهم.

وبكلمات بطيئة ومتثاقلة أثناء هروبها من فم الرجل، سريعة الولوج إلى الأسماع المصغية، والتي لم يكن عماد يفهم أيًّا منها، راح ذلك الرجل يسرد قصته المعنونة بالدم على مسامع الحاضرين، فيما جلس محمد ياسين إلى جانب صديقه متبرعًا بترجمة تلك النصوص إلى لغة عربية ركيكة.

وتحدث الرجل عن كيفية فقدانه لأربعة من أبنائه خلال هجوم مسلح شنه مسلحون بوذيون على قريتهم، فخرجوا لا يعرفون إلى أين عليهم الهرب، كل أخذ طريقًا مختلفة عن الآخر تفرقوا على إثرها، ولم يصله خبر أي أحد منهم حتى هذه الساعة، وأغلب الظن أنهم لقوا حتفهم جميعًا هناك، أطفال في عمر الزهور، فلم يبلغ أكبرهم سن العشرين بعد، وكانت عيناه تذرف دمعًا تلخص معناه في: «أيهم يا ترى مات ميتة أشنع من أخوته»، وكانت «أين إخوتنا المسلمون يا ترى؟» آخر جملة قالها ثم انهمرت دموعه سيلًا، فبكى بحرقة وأبكى من حوله.

وكان هذا رابع شخص يطرح مأساته بين أحضان هذه المحكمة الموقرة، وبعد أن تراجع عائدًا إلى مكانه تقدم رجل

آخر عن رفاقه، وكأنهم قد اتفقوا على مواساة بعضهم البعض من خلال طرح أحزانهم واحدة تلو الأخرى، وكان عماد قد أرسل بصره بدقة نحو ذلك الشيخ الهزيل الذي تمادى حتى العمر عليه، وقد غزا البياض لحيته وكل ما يغطي جلدة رأسه، وكانت ألسنة اللهب قد التمعت في عينيه المطفأتين عندما مسحهما بقبته القطنية وراح يحدث الجمع حديثًا فيما كانت ترجمته تعني أنه قد فقد ثلاثة من إخوته، امرأتين ورجلًا، بينما نجا هو بنفسه مع أحد عشر شخصًا من أسرته فروا عبر الجبال، لكن الشيء الذي لم يخبر به، والذي لم يكن بحاجة إلى ترجمة هو أنه قد فر بذراع مقطوعة، ولم يبكِ كسابقه فقد جفت عيناه الداخلتان كما يبدو، فسكت وابتعد في هدوء إلى الوراء متيحًا بذلك الفرصة لشخص آخر.

وتقدم آخر، هو شاب لم يبلغ الثلاثين بعد حتمًا، جلب معه وجهًا لو قدر لك أن تراه لاعتراك حزن لم ترَ مثله طوال سنين حياتك الماضية، بمجرد النظر إلى ذلك الوجه حتمًا سيصيبك هذا، كيف لا وقد اعتلى بؤس مسود ملامحه، عيونه متهالكة وشفاهه جافة متشققة من فرط الجوع والعطش تدفع بعيون عقلك إلى البكاء دفعًا، وإذ لم يكن هنالك أي مجال للشعور بالخجل أو العار من حكاياهم، ولم يعد هناك ما هو أهم من إفراغ صدورهم الممتلئة عن آخرها، وحتى إذ تم كل هذا الكلام في نفوسهم، تقدم الشاب بجرأة وتحامل واضح وأسدل الكلام على الصمت الرهيب قائلًا:

- وأنا جلست أشاهد أختي تغتصب أمام عينيّ في غير ما حول لي ولا قوة، مكبلًا ممددًا على الأرضية، ولم أستطع فعل شيء، وبعد أن قاموا بجري بعيدًا عنها، لم أتمكن من رؤيتها حتى الآن، ولست أدري لِمَ نجوت أنا؟

وغلبته تلك الابتسامة الميتة، وبعد همهمات خفيضة تقدم شخص آخر، وكان يمشي على ثلاثة إذ سبقته عصاه في كل خطوة، مبتور الساق والأهل والوطن، وليس الدين حتمًا، وتقدم حتى صبت عصاه في موضع ما قرب النار وتنهد قائلًا:

- زوجتي قتلت رميًّا بالرصاص لمجرد أنها رفضت أن يخدش حياؤها، وكنت أراقبها لما أخذت بعيدًا إلى زاوية أخرى، ثم عادوا بعدما أفرغوا أسلحتهم عليها، وقاموا ببتر ساقي بضربة عنيت بكل اهتمام ممكن لذات الغرض، حتى إذ انتهوا انصرفوا عني ضاحكين في غير منتهى من السعادة، ذلك بأنني كتمت سر ابنتي التي هربت منهم ولم أرها بعدها، وعندما تركوني هناك منطرحًا كنت غارقًا في بقعة من الدماء أراقب ساقي التي ركلت إلى زاوية أخرى.

ولما غادر الوسط كانت النساء قد هجمن بكلهن واحتللن مكانًا لا بأس به بين الجمع، ولم ينطق أحد من الرجال إذ نطقت إحداهن بشجاعة، وكأنها تفاخر بمدى عظم حجم مأساتها، وأطلقت عنان لسانها قائلة:

- قتل البوذيون عشرة من أبنائي وأحفادي... (وخلال هذا كانت يداها تتطايران في الفضاء لتضفي مزيدًا من الإثارة على الحكاية): وأمام عينيّ وأنا أراقبهم، حتى أنني لا زلت أسمع بأذني هذه صوت أصغر حفيد لي وهو يذبح بنصل حادة و... و... وكان يستجديني ويستغيث بي بينما يلفظ أنفاسه الأخيرة تحت أقدام أحد الرجال البوذيين، وآخر لم يبلغ السنتين بعدما قاموا بتقطيعه إلى أجزاء صغيرة أمام ناظري.

ولما كانت العبرات قد تمكنت منها أخيرًا، بكت عيناها الذابلتان بحرقة، وأبكت الجميع، وبكت معها النساء، وأحسب أن ذلك ذكرها بما كانت تفعله أيام الخميس كلما أمسكت بإحدى دجاجات حقلها لتقطعها وتعد بها ذلك الحساء الطيب المذاق لأحفادها...

اللّهم إن كان في قلب أحدنا ذرة من حب وغيرة ورحمة وإحساس وحسرة وألم وندم وخجل ووجل ورغبة ورهبة وإرادة وتمن وحرقة أو حمية عليهم، تجاههم، لأجلهم، لهم، أو بهم فأنت أعلم به، فلا تؤاخذنا نحن رواد المكتبات، الآباء المنشغلين وكل الأمهات، فلا ذنب لنا سوى أننا لا نستطيع غير الدعاء سبيلًا...

وعادت المرأة إلى مكانها وتلتها ثلاث أخريات حملن وطرحن قصصًا متشابهة، لا تخلو من فقدان شرف أو أحبة

أو الخضوع إلى ممارسات شيطانية تخجل الأوراق من حمل تفاصيلها حتى بدا وكأنه لا توجد ثمة عائلة مكتملة، الجميع فقدوا، ولا أحد يروي قصة فيها مفردات للسعادة...

ولما ارتفع الأذان داعيًّا إياهم لتوجيه عبراتهم لمن له القدرة على ترميم قلوبهم في لحظة تفرقوا في عجل كل في حال سبيله، وعندما قضيت الصلاة وعاد كل إلى كوخه الصغير، عاد عماد إلى التراب ليؤنس وحدته، وانطرح عليه في إحدى الزوايا المنارة بضوء القمر إلى جانب آخرين لم يتسنَّ لهم الحصول على مواد أولية للانطلاق في مشاريعهم السكنية، واتخذ من محفظته وسادة ألقى برأسه الكبير عليها، ومن سترته غطاء يحتمي بها من لفائف الهواء المتجولة، وكانت أسراب البعوض المزعجة تنطلق في حرية تامة مطلقة العنان لمزاميرها فوق رأسه، متسببة في طرد النوم بعيدًا عنه لمسافة بعيدة رغم رغبة جسده الملحّة فيه.

حشرات تطير وأخرى تخرج زاحفة من الأتربة، وأصوات الحيوانات المفترسة المتأتية من الغابة كان لها دور كبير في كل ذلك، وروائح كريهة تنبعث من كل اتجاه بضراوة مخلفة أنفه في خناق حاد مزعج، ولما نظر حوله كان الجميع غارقين في نوم عميق، ذلك أنهم قد اعتادوا على الأمر مسبقًا، فهرع إلى محفظته وأخرج منها آلة تصوير صغيرة بحيث يمكن إخفاؤها بسهولة، وراح يضغط عليها آخذًا في تقليب الصور التي كان

قد التقطها خلال اليوم بأصبعه متنقلًا من واحدة إلى أخرى، وتارة كان يهش بها نحو أسراب الحشرات المتطايرة فوق رأسه، ولا زال به الأمر هكذا حتى انتصف الليل وأسعفه النوم أخيرًا، وغط في نوم عميق حتمًا لم يجرب مثله مسبقًا لشدة فظاعته...

-٥-

وحل صباح اليوم وأشرقت الأرض بنور ربها على الكائنات، أسعدها وأتعسها حظًا، وعلى اختلاف أشكالها وألوانها لا تفرق بين أحد منها، فالطبيعة لا تظلم أحدًا، وتعطي الجميع بالتساوي، كل حسب حاجته، لكن بعض البشر ورغم صغر أحجامهم التي لم تتعدَّ المترين إلا نادرًا، لا يقبلون بهذه القسمة، أن يأخذ كل ذي حق حقه، وشرعوا يبنون أهرامًا تحدد شكل القسمة المرجوة بينهم.

أن يمتلك بعضهم مساحات أكبر من الأرضي، وبالتالي موارد طبيعية أكثر، وبشرية أكثر وأموالًا أكثر تضمن لهم البقاء أطول فترة ممكنة على قمة الهرم، ولأن ذلك لم ولن يكون كافيًا، فقد وصلت بهم الوقاحة -أو هم الذين أوصلوا الوقاحة- إلى عدم تقبل فكرة أن يعتلي دين غير دينهم، معتقد غير معتقدهم، أعلى الهرم، ففعلوا ما يستوجبه الأمر لمنع ذلك، وأنكروا جرائمهم، وضحكوا على من يشكلون قاعدة الهرم، ولا زالوا يضحكون عليهم بصوت مرتفع.

وصل القارب أخيرًا، وكان عماد وصاحبه ينتظرانه على الضفة، ولم يتركه صاحبه تقدم إليه محمد ياسين وحدثه في أمر ما، ثم دفع إليه نقودًا بقدر ما تتطلبه الرحلة وعاد أدراجه.

ولما كان عماد يهم بركوب القارب أبدى شيئًا من التوتر أو الخوف أيًّا ما كان ذلك، وكان محمد ياسين قد لاحظ ذلك على وجهه، فتقدم نحوه يربت على كتفه مشجعًا وهمس له:

- نحن هنا سندعو لك في كل صلاة وفي كل لحظة، على أمل أن تمر علينا في طريق عودتك، توكل على الله وليكن دربك مفتوحًا!

وتعانقا بقدر صداقتهما ومضى كل في سبيله، ولما اعتلى عماد القارب وأخذ لنفسه مكانًا في المؤخرة وراح يسترق نظرات أخيرة نحو صاحبه وما أمكنه أن يرى من أعالي المخيم، كان صاحب قبعة القش المستديرة قد أمسك بمجداف القارب وراح يدفعا بهما إلى الوراء في حركات روتينية متقطعة لينطلق بهما بعيدًا عن ضفة النهر.

ولما كانت الشمس قد ارتفعت قيد رمحين أو ثلاثة كان القارب قد توسط النهر آخذًا في مقاومة التيارات الهائجة المعادية، وإذ كان عماد غارقًا في استرداد كلام صاحبه مستحضرًا بذلك أفكار شنيعة عن عدد الجثث البشرية القابعة في قعر النهر والتي يمرون فوقها، وإذ به كذلك لاح

جسم أسود من بعيد قادمًا نحوهم، ولما قصرت المسافة واتضح الأمر للعيان جعلت قشعريرة شديدة تسري في جسده لما تلقفته عيناه من عيون بشرية دامعة.

فها هي كل محطات العمر التي يمكن للإنسان أن يحط فيها أثناء رحلته في الدنيا تمر عليه مجتمعة في تابوت خشبي واحد، رجال ونساء، شيوخ وعجائز، وشباب وأطفال من البنات والبنين، ورضع على صدور أمهاتهم غارقون في نوم عميق وأعمار بين كل ذلك، كلهم مجتمعون متلاحمون على بعضهم في قارب واحد لا يتعدى طوله الخمسة أمتار، تتلاعب بأرواحهم قرارات مكتبية من أعلى، وأمواج حمراء من أسفل منهم.

ولما احتكت العيون مع بعضها، بدا وكأن الزمان قد راح يتعثر على نفسه ويتباطأ شيئًا فشيئًا مانحًا الوقت الكافي للزائر الحنون كي يتسنى له التنقل بين كل تلك العيون الذاهلة الخائفة، من صغيرهم إلى كبيرهم، من أتعسهم إلى أقلهم تعاسة، من أهزل الأجساد إلى أكثرها هزالًا، من أكثرها عريًّا إلى أعراها، من أكثرهم شحوبًا إلى أشحبهم...

وانحرف القاربان فأخذ الزمن يتسارع عائدًا إلى وضعه الأصلي، لكن صورهم وهم ينظرون إليه بتلك النظرات الجريحة المسحوقة وراء النهر لم تغادر مخيلته البائسة، وظلت المشاهد تتكاثر إلى مقدمة رأسه دون توقف في فظاعة شديدة،

لم يمنعها عنه سوى قارب آخر كان ينحدر نحوهم، ولم يكن ينحدر بقدرة فاعل بل بقدرة النهر المتلاعب بأقدار الحيوات البائسة فكان القارب خاليًا من كل نفس بشرية بعدما انقلب على نفسه واختفى جوفه في الأسفل، وهجمت الأفكار التي لا بد من هجومها: «لا بد من أن عشرات الأجساد البشرية قد اختنقت منذ فترة وجيزة في عمق هذا النهار، كم تخبطت وكم استنجدت، وكم ابتلعت من قطرة قبل أن تسلم نفسها، وكم ثانية مارست لحظة الاختناق!»

ابتلع ريقه مجددًا وأسلم، والتقط صورة سريعة للقارب المقلوب وعاد بناظريه نحو اليابسة التي لاحت لهم، حيث ينتهي نهر «ناف» الأسطوري الذي يحوي أسفله عشرات من جثث المسلمين العطشى، ولما اصطدمت مقدمة القارب بالتراب وتوقف صاحبه عن الدفع تمامًا، أسرع عماد بالهروب من القارب والتخلص منه ومن صاحبه فوضع رجلًا على التراب وأنزل الثانية وابتعد قليلًا فيما أخذ يراقب الجموع التي هجمت تتسابق نحو القارب، وكل وحد منهم رافع ذراعيه عاليًا مشيرًا بآخر ما تبقى لديه من قطع معدنية عله يحظى بمقعد جميل في المقدمة...

وعاد عماد من سرحته تلك بعدما غاب القارب بعيدًا، واستدار نحو البراري الممتدة أمامه على مد البصر، وراح يتقدم عبر الشجيرات المبعثرة على الأطراف يتجاوزها ويمر

عبرها حتى انتهى إلى مدخل واسع من الحقول الممتدة، وكانت محاصيل الأرز في الحقول تالفة عن آخرها بسبب الإهمال المتروك فيها، ذلك أن أصحابها الذي لا حول لهم ولا قوة قد أرغموا على تركها، بعد أن وضعت رؤوسهم بين ثلاث خيارات لا رابع لها، تمحورت أهدافها في نتيجة واحدة، وأن تحصيل أصحابها لها خيار غير مطروح أبدًا، فبين أن يقوموا على أراضيهم ويقدموا محاصيلها إلى الجنود غصبًا عنهم، وبين أن تفصل رؤوسهم عن أجسادهم، أو وأخيرًا أن يغادروا بعيدًا بغير رجعة، والنتيجة انتهت لصالح الخيار الأخير ولا شك في ذلك.

وكان عماد أثناء سيره في غير ما اتجاه محدد يحط بنظراته في كل اتجاه ترقبًا لأي مفاجأة ما قد تظهر له في أية لحظة، ولم يحدث له أكثر مما توقعه، إذ رمت به المحاصيل إلى طريق ترابية فرعية قادته آخر الأمر نحو عدد من الأكواخ المزروعة على جنبات الطريق، ولما وصل إليها أفضى بسؤاله إلى أحد الرجال المعترضين طريقه، وكان قد أسقط قبعة مخروطية من القش اليابس على رأسه ومنجلًا على كتفه، وبذلك يكون قد أتمم استعداداته للأمر: «سلام عليكم!» وانتظر قليلًا إذ لم يبدِ الرجل أي رد فعل سوى تغير طفيف في ملامحه المدهوشة وزاد قائلًا: «أريد الذهاب إلى قرية (آه نوك بين) هل يمكنك أن ترشدني إليها يا سيدي؟» وإذ لم يبدِ الرجل أي تجاوب هذه المرة أيضًا، فقد قرر عماد استعمال سلاحه الثاني، وذلك كون

اللغة الإنجليزية هي اللغة الأجنبية الأكثر انتشارًا في البلد، فقال فيما معناه: «هل يمكنك أن تدلني على الطريق إلى قرية آه نوك بين؟» لكن الرجل وبعد ابتسامة خاطفة لم تتطلب منه كثيرًا حتى يفعلها على وجهه الأسمر المدور قال بعدها: «أنت عربي... (آه نوك بين)!» وبينا يهز رأسه رفع ذراعه مشيرًا بها نحو رجل آخر، ثم مضى في حال سبيله بعد انحناءة لطيفة، والتفت إياد إلى الرجل المشار إليه وتقدم نحوه وعندما كرر نفس السؤال المذكور سابقًا، رفع الرجل رأسه عن حزمة الحشيش التي انحنى نحوها، وأظهر تفاجئه بالغريب الواقف عند رأسه، وقال بعدها في كثير من الترحيب والحنية الآسيوية: «طبعًا، طبعًا يا سيدي، فقط اتبعني قليلًا لو سمحت!» ثم قام من مكانه وأخذ يمشي بخطى تبعها عماد بتمزق شعوري لاذع، إذ كانت ساق الرجل لم تسلم من عبث الهمجيين من أصحاب البذلات الخضراء، فراح يغذ الخطى غير المتناسقة بعشوائية حتى انتهوا إلى تلة مرتفعة وثبتا أقدامهما عليها، فبرزت أرض لا نهائية من الغابات والأراضي الخضراء ذات غطاء نباتي كثيف، فرفع الأعرَج المتلهف للمساعدة ذراعه نحو الأعلى مشيرًا بها نحو اتجاه ما، ثم قال بعدها: «سوف تنحدر من هنا نحو تلك الشجيرات المتجمعة مباشرة، وهناك سوف تجد طريقًا مخفية وسط الحشائش المرتفعة، سوف تقودك إلى أسفل ذلك الجبل المرتفع، حيث ستنقسم الطريق إلى جهتين مختلفتين، وعليك بمواصلة دربك نحو اليمين تمامًا،

لأن جهة اليسار لن توصلك لأي شيء حتمًا»، ولما انتهى الرجل من توجهيه الحريص اتبعه بدعوات صادقة للحفظ والحماية ثم عاد أدراجه يعرج شيئًا فشيئًا.

ونقّل عماد عينيه بين كل شيء استطاع تنقيلهما عليه ثم ذكر الله ومضى نحو الأسفل، ولما كان عماد قد أنهى انحداراته الدرامية على الأتربة والصخور المتدحرجة، وإذ نقّل بصره مرة أخرى على كل ما يحيط به من أشجار وشجيرات ونباتات وصخور وخط طويل من قطع التراب المتتالية، هز محفظته وركل الأرض طاردًا بقايا خوفه وعازمًا على ما تولد في نفسه ومضى في طريقه.

***

بعد ساعتين من المشي الهادئ وسط الحشائش الخضراء اليانعة ووشوشات الأرانب وتحت زقزقات الطيور، كانت الطريق الضيقة قد توسعت كثيرًا، توسعًا أكثر مما تحتاجه سيارة لعبور المنطقة، وشيئًا فشيئًا بدأ عماد يشعر بالملل الشديد لخلو رحلته من أي رفيق آخر فأخرج هاتفه الكبير الناصع تحت أشعة الشمس يتفقد حاله، ولما كان أكثر ما يميز الهاتف معطلًا، أي أن الإشارة لم يكن لها وجود، وذلك طبيعي جدًّا إلى أبعد الحدود، وكان الشيء الوحيد الباعث على التنهد المريح في هاتفه هو الساعة السليمة التي كانت تشير إلى العاشرة والنصف صباحًا، ولأن لون البطارية قد استحال

إلى الأصفر منذرًا بمدى قرب تلك الهزة الصغيرة ثم اللون الأحمر بعدها، أعاده إلى مكانه في الجيب السفلي لسرواله القابع عند ركبته ومضى في طريقه.

ولم تكن الخطوات القادمة تحمل أي بِشر جميل، فها هي ذي روائح كريهة بدأت تتسلل وتختبئ داخل أنفه، وتلتها خطوات أخرى تيقن خلالها عماد أن هذه الروائح لا تعدو كونها روائح جيفة ما، وكانت الطيور السوداء المنتشرة في السماء بمثابة التصفيقة التي تؤيد قراره، فتجمع الغربان على بعضها في دائر كبيرة لهو حتمًا دليل قاطع على وجود جيفة أحد الحيوانات ملقاة في الجزء المتبقي له من الطريق.

ولأن عملية التقدم نحو الأمام أكثر دون القيام برد فعل على ذلك الهجوم البيولوجي على أنفه أصبح مستحيلًا، فقد لف أنفه الكبير بمجامع يده وراح يشق طريقه متقدمًا نحو مصدر الرائحة.

ولما كانت قدماه قد وقفتا به تحت دائرة الغربان تمامًا، ولم يكن على الطريق أي شيء من شأنه إثبات قراره الحكيم، فقد راح يلتفت يمينًا وشمالًا نحو ظلمات الغابة عله يلمح طريدته المتخفية، وعندها لاحظ بعينيه المحروقتين أن سوادًا يابسًا قد تمدد بلا حراك خلف إحدى الشجيرات الخجولة المختبئة وراء مثيلاتها، أحكم إغلاق فتحات أنفه وجعل من صدر قميصه الداخلي غطاء على وجهه، وراح يغذ الخطى نحوه

شيئًا فشيئًا، حتى تكشف له اليابس الأسود في أفظع منظر قدر لعينيه اللوزيتين أن ترياه في أيما يوم مره عليه خلال أيامه السابقة المزهرة، وعندما قام جسده بتلك الحركة اللاإرادية المتمثلة في رعشة سريعة كان قلبه قد قرر العمل بجد وضخ الكثير من سيول الدم في لحظات وجيزة، وكانت عيناه لا تزالان مسمرتان على جسد بشري مقطوع الرأس تمامًا، قطعًا دقيقًا يظهر مدى وحشية وإصرار من قام بتنفيذ العملية، جثة بشرية عارية تمامًا ملقاة وسط غابة مظلمة، مشرحة بمخالب حيوانية حادة، وبطريقة شنيعة وعفانة ليس بعدها عفانة...

وبعد مرور كل تلك الثواني كان عماد لا يزال يابسًا في مكانه يحدق نحوها بذعر شديد مدهوش الفكر والعينين، وكانت الجثة قد فقدت كثيرًا من أجزاءها الأساسية بسبب النهشات الحيوانية المتروكة عليها، ولأن الرأس لم يكن موجودًا فواضح أن غريمه قد احتفظ به لسبب ما، وعندما استطاع التملص من يبسته تلك هرع إلى الهروب من حيث جاء أول مرة حتى إذ ما وضع قدميه وسط الطريق، أحنى رأسه نحو ركبتيه وأخذ يلقي بكل ما في بطنه على الأرض العطشى، حتى إذا ما تم له ذلك رفع رأسه ليسترجع أنفاسه بصعوبة بعدها، بعدما تقيأ بشكل فظيع ومؤلم جدًّا كما لم يسبق له أن فعل من قبل، أسرع بالهروب من ذلك المكان عدوًا، لكن هول المنظر لم يتوقف عن مطاردته، حتى أن قطعة الطريق الجديدة لم تخلُ من قطرات الدم اليابسة التي زينتها بشكل مخيف جدًّا.

أربع دقائق مضت منذ بدأت الهرولة، تم فيها حدوث اضطراب شديد في التنفس، ألم في العضلات والمفاصل، وانحناءة أخرى على ركبتيه، وكان قد حدث قبلها الكثير من الالتفاتات يمنة ويسرة، ذعر وروع شديدين، مع كل صوت وشوشة على الجانبين، كانت ضربات القلب تزداد، والأنامل ترتعد، والأشباح المختلقة تستمر في المطاردة، والأفكار لم تنفك تعود إلى الخبر الذي ألقي إليه سابقًا، لن تتخيل مدى فظاعة الأمور التي قد تلاقيها، وعندما ركع على ركبتيه لم تكن لديه أي فكرة عن الرأس التي ركع أمامها، حتى أنه لم يكن قد اكتشف بعد أنه قد ركع عند أي شيء أبدًا.

وعندما استرد أنفاسه وأخذ يرفع رأسه نحو الأعلى بداية من الساق الخشبية المغروسة في الأرض آخذًا في الصعود معها، شيئًا فشيئًا، تكشفت له تلك الرأس البشرية في الأعلى، وكانت الطريق التي قادته إلى هنا قد انفصلت عن بعضها عند العمود مباشرة، وانقسمت يمينًا وشمالًا عند قاعدة الجبل، تمامًا كما أخبره الرجل، وإذ لم يكن ذلك الشيء المعروف سابقًا ليثير اهتمامه كثيرًا، فقد ركز بصره على ذلك الوجه المحدق نحو السماء بعينين غلب عليهما اللون الأبيض في جمود وبرودة عفنة، وكانت الدماء الهابطة من الرقبة قد طوقت العمود الخشبي وشكلت طبقة من الدهن الأحمر الساطع تحت أشعة الشمس المرتدة عنها، وحينها حصل على جواب سؤاله: «لم يحتفظوا برأس الرجل بعيدًا عن جسده»، والصحيح أنهم

احتفظوا به ليعلقوه هنا وسط مفترق الطرق هذا ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه التطاول على طلبات الدين والدولة.

وإذ لم تكن لدى عماد أي قدرة على الوقوف أكثر من ذلك، فقد رفع يده في كثير من التردد وبعد الكثير من التحفيز الذي رش به نفسه اللطيفة، ووضع أصابعه المرتعدة على العينين الميتتين وأسدل عليهما جفنتيهما الطريتين، ومضى في طريقه نحو اليمين كما سبق وأن تم إرشاده إلى ذلك.

ولأجل وصف أوضاع وظروف ومشاهد كهذه، أعتقد أن استعمال كلمة «مؤسف» قد تكون أمرًا خاطئًا في حد ذاته، إذ يمكن استعمال هذه الكلمة عندما نمسح الغبار عن أحد الكتب لنجد فيها أن المغول أو التتار أو الفايكينغ قد تركوا وراءهم أشياء كهذه، رؤوسًا مقطوعة، وأجسادًا منكل بها تنكيلًا، وأطرافًا مرمية، ودماء كثيرة، وصرخات مرعوبة حينها فقط يمكن استخدام هذه الكلمة، ذلك أنه من المؤسف ما كان يحدث للقبائل ذات الحظ التعيس لوقوعها في طريق سيرهم، لأن كل الظروف حينها كانت تقف لصالح الطرف المعتدي على حساب الطرف المعتدى عليه، ولم يكن الخبر ليصل إلى باقي القبائل المجاورة إلا بعد أن تتم المهزلة ويسدل الستار على ممثليها، وحتى إن وصل الخبر أثناء تمثيل تلك المسرحيات الهمجية فما الذي يمكن فعله حينها! لكن الآن، وأن تتكرر تلك المشاهد نفسها، في هذا الزمن، مع معرفة

مخرج الفيلم، الممثلين، طاقم الصوت والتصوير، على مرأى ومسمع من العالم أجمع، ومع القدرة المؤكدة على إيقاف هذا الفيلم الدموي خلال ساعات قليلة، فأعتقد أن استعمال تلك الكلمة لهو أمر شنيع فظيع مخجل في حد ذاته، لذا يجب أن نجري بحثًا دقيقًا في قواميس الكلام علنا نكتشف كلمة مناسبة لوصف ما يحدث، أو ربما يمكننا وببساطة أن نستدير وننظر إلى وجوه بعضنا، ونرى من سيخفض رأسه أولًا.

-٦-

تتالت ثلاثون دقيقة أخرى من الخطو على الأقدام، كان التعب قد بدأ يتسلل إلى جسده المتعرق بشدة، كما وشعر أن قدماه تتورمان داخل حذائه الجلدي السميك، وما لبث أن انتبه إلى أن البساط القديم قد سحب من تحت قدميه، وأنه دخل أرضًا أخرى غير التي كان فيها، وسماء أخرى غير التي كان تحتها، ذلك أن الغابة التي كانت على يمينه قد اختفت تمامًا، واحتلت مكانها مربعات كبيرة وكثيرة من الحقول الخضراء المائعة، أما عن يساره فكانت الغابة لا تزال ترافقه على امتداد ذلك الجنب من الطريق، غير أنها فقدت كثيرًا من هيبتها المخيفة، إذ كانت الأشجار قد تباعدت عن بعضها، وخلقت بينها مسافات لا يمكن أن تختبئ بينها أي جثة نتنة الرائحة، تمامًا كأسنان مشط قديم تساقطت معظم أسنانه، وراحت تفترش الأرض صعودًا معانقة الجبل وتاركة عليه لحافًا أخضر يمتد ويعانقه حتى أعلى رأسه.

وعندما وجه عماد ناظريه نحو الحقول مرة أخرى، لاحظ أن شيئًا غريبًا يرتفع من أحد الحقول القريبة من الطريق، ولما تكاثرت خطواته نحو ذلك السواد القائم، كان عماد قد حلل الأمر في رأسه تحليلًا منطقيًّا جدًّا، وهو أن ذلك الشيء لا يمكن أن يتعدى بأي حال من الأحوال كونه مجرد فزاعة خشبية لطرد الطيور المتطفلة على الحقول.

وإذ ظهرت بعض الأكواخ من خلفها، فقد كان ذلك توكيدًا عظيمًا على تخمينه، توكيد تم فسخه في نفس اللحظة، لحظة سبقت تباطأ خطواته وتلعثمها، تلتها خيبة عظيمة، وإذ كانت الفزاعة غاية في الجمال والكمال والصنع المتقن، جميلة بشكل غريب وحقيقية بشكل أغرب، حتى أنّ الوقوف أمامها مباشرة ليجفل القلب ويجعله يبرد، وليبث في النفس أحاسيس مرعبة بحق، وذلك ما يجعلها ومن غير شك، تؤدي مهمتها بشكل جيد للغاية وكيف لا، إذ أنّ عماد قد وقف أمام فزاعة بشرية سوداء متفحمة بالكامل ومعلقة على صليب خشبي كبير غرس على جنب من جنبات الطرق، داخل حقلها ولسبب واضح، وإذ تم ربطها هناك عندما كانت حية، أو لها أنفاس تدخل وتخرج منها، أقول تم ربطها على العمود وهي عارية تمامًا، إذ لم يكن ثمة أية آثار لقماش محترق عليها، ثم جمعت الأخشاب تحتها وأضرمت النار فيها وهي لا تزال حية تتنفس، فكيف لا تؤدي الفزاعة دورها لما تكون واقفًا عندها وعيونك شاخصة فيها، وأفكار ما قبل الحرق قد أخذت تتدفق إلى رأسك بغير إرادتك

وبغير حول منك ولا قوة، تتواتر واحدة تلو الأخرى، لمّا كان يربط، ولما وضعت الحطبات تحت أقدامه، ولما كان الرجل الصالح يحرك الولاعة بين أصابعه ليعطيها دفعة قوية، آخذًا في النفخ على النار عندما ظهر لسانها، متى بدأت صرخات الرجل يا ترى، هل عندما شعر بأن مخ رأسه يغلي، أم قبل ذلك! ولستُ أدري ولستَ تدري، لكن الفاعل يدري، والله يدري، كم هي مؤلمة تلك الميتة عندما يصل بك الوجع إلى درجة بحيث لا يمكنك ذرف الدموع حينها، وليس لديك الوقت حتى للتفكير في ذرفها مع أنه ومن عادة العين أن تدمع إذا ما أصابتها شوكة أو كلمة جارحة أو أنها فارقت من تحب، نعم، من عادة العين أن تبكي على أمور شديدة القسوة كهذه، ولكن من يدري! فربما أن بعض الدمعات قد حاولت التسلل خارج تلك الجفون الساخنة، لكنها تبخرت في الهواء بفعل الحرارة.

وعاد عماد بنظراته نحو الأسفل وأغمضهما مطولًا فيما راح يتحسس ذلك الوجع الحارق في قلبه براحة يده، لكن لا، لا يا عماد، يجب عليك أن تكون قويًّا، يجب أن تواصل، لهذا السبب يجب أن لا تشعر بالضعف أبدًا، أخرج آلة التصوير، خذ لها صورة وواصل، ولما أبعد آلة التصوير عن وجهه، ابتعدت معها دمعة ساخنة انسابت على وجهه ولم يمسحها، وترك الهواء البارد ليفعل ما شاء أن يفعل بها، ومشى بعيدًا حيث ترك الفزاعة وراءه.

***

كان يفصل بين الحقول المتجاورة تلك الخطوط المرتفعة من الحجارة والأتربة التي تحدد محتويات كل حقل عن الآخر، ولما تجاوز واحدًا منها وقفز من عليه بسهولة وجد نفسه يخطو وسط رهط من الأكواخ المحترقة المتداعية، بعضها مصنوع من خشب، وبعضها من طين وقصب، وكان يتجول بينها يدخلها، ويخرج منها باحثًا عن أيما أثر عن الحياة فيها لكن لا، فقط بعض من بقايا الطعام المتعفنة باللون الأخضر والتي لا زالت في أطباقها معدة على الطاولة.

أمر مؤسف حقًّا أن توضع مائدة الطعام وتجتمع مع عائلتك حولها، فلا تسنح لك حتى الفرصة لتذوقه، إذ تسمع حينها صراخا عاليًّا يدق عليك النافذة، ثم قد ترفس الأبواب الخشبية بركلة قوية تلقي بها على الأرضية، وليحدث ما يحدث بعدها.

ولما أنهى تفقد أول جزء من القرية الصغيرة وتوجه نحو المقدمة قليلًا، وقعت عيناه على تلك الأطراف البشرية المرمية وسط الساحة الصغيرة، على الأرض هنا وهناك في عشوائية تامة، حقًّا لم يعد أحد يهتم بنظافة الشوارع في هذا الزمن، فكيف لم يقم أحد بتنظيف كل هذا، كانت آثار الأقدام المتروكة هنا وهناك تخبر بشكل واضح عن مجموعة من الحركات الهمجية التي حدثت هنا، وإذ كان يجر ساقيه وسط الأعضاء البشرية بهدوء خشية الدوس عليها، أذرع وأياد وأقدام ورؤوس

وأجساد بلا أطراف بأشكال وأحجام مختلفة، وإذ كانت بعض الأجساد لا تزال على حالتها الكاملة غير أنها أصيبت ببعض الجروح العميقة خلفتها الشفرات التي غرست فيها، فقد كان حقيق به أن يدير وجهه ويمضي في طريقه رحمة ورأفة بقلبه ومشاعره الرقيقة، تاركًا وراءه تلك الجنائز ذات الحظ التعيس، كونها لن تحظَ بفرصة لدفنها، غير أنّ فرصتها الوحيدة تكمن في تلك الحيوانات الشاردة المفترسة التي قد تمر أو قد لا تمر عليها...

وبعدما أضاف مزيدًا من الصور إلى ألبومه الأحمر، فقد سارع بالهروب من تلك القرية عائدًا إلى الطريق الترابية التي كان قد انحرف عنها، فواصل تقدمه نحو الأمام، ومع كل قطعة أرض كان يتجاوزها، كان يصادف أكواخًا أخرى تزين جنبات الطريق أو أحد الحقول وأشياء أخرى كانت تشبه الفزاعة، حتى وجد نفسه وقد ترك ذلك الجبل وراءه تمامًا، إنها نهاية الطريق، أو بدايتها.

ولما كانت الشمس قد تجاوزت أعلى رأسه وانحدرت بنصف زاوية، وكانت حرارتها قد خفت بشكل ملحوظ جدًّا، وجد نفسه قد وقف أمام القرية المنشودة.

طريق طويل يمتد نحو الداخل، ويقسم القرية إلى جزئين، شرقي وغربي، ومع الخطوات الأولى التي تلت مدخلها، أخذ عماد يتفحصها بعينيه المتعبتين الذابلتين في حركات دائرية

بطيئة، ينظر إلى البيوت على اختلاف أشكالها وأحجامها، بعضها من الطوب والقصب وبعضها الآخر من الآجر والإسمنت الخالص مغطاة بالقرميد الأحمر، عبر كل زقاق واسع كان أو ضيق كان يرمي بناظريه نحوه، وعبر كل نافذة صغيرة مفتوحة، ونفس المناظر كانت تتكرر في كل مرة، إذ أنها لم تخلُ من أجساد سمراء ترتدي ألبسة منتهية الصلاحية منذ زمن، أجساد تتحرك وسط الشوارع كالأطياف الباردة، هزيلة وبائسة وجائعة ومنهكة إلى أقصى الحدود، لكن الابتسامات الجافة المبتذلة لم تغادر أيًّا منها، فمع كل شخص كانت نظرات عماد تلتقي في الهواء مع نظراته، هذا الزائر الغريب أبيض الجلدة، كان يبادره ملقيًّا عليه التحية بابتسامة متعبة، وكان رجل في أواخِر الأربعين قد جلس أمام مدخل كوخه مسندًا ظهره إليه ممسكًا بقطعة خشبية بين يديه حيث راح ينحتها بسكين صغيرة حادة وفي سكينة واطمئنان عظيمين.

فتقدم إليه وسأله في كثير من التودد والاحترام المبالغ فيه مع الكثير من التمني أن يكون للغة الإنجليزية حظ وفير في لسان الرجل: «هل تعرف أحدًا هنا باسم ضياء الدين، لقد كان رجل سياسة معروفًا في البلد؟» ولما تلقف الرجل هذه الكلمات رفع يده وهي لا تزال ممسكة بالقطعة الخشبية مشيرًا بها نحو جهة من الجهات الأربع الممكنة دون أن يقول شيئًا، ومنها فهم عماد أن عليه مواصلة التقدم مع إمكانية كبير في ضرورة

طرح المزيد من الأسئلة، ولما كان قد قطع زقاقين اثنين وجد نفسه يحدث رجلًا أخر، ثم آخر، ثم آخر، ثم وإذ أن الأخير قد أرشده كما يستحق عابر السبيل التائه هذا أن يرشد، فقد عمد إلى خيوط حقيبته يشدها في كثير من الارتياح والسعادة، ولم يلبث أن زحف بخطوات أخرى خطوات حتى وجد نفسه في الجهة الثانية من القرية حيث تسمرت عيناه على كوخ صغير ذي حطبات بيضاء أقرت بغير ريب من أنّ الكوخ حديث الرفع والبناء.

وإذ أن عماد قد دخل القرية من الجهة الأخرى، فإن هذا الكوخ كان يستقبل مدخلها الآخر من هذه الجهة، آخذًا لنفسه مكانًا بعيدًا عن كل التراكمات الأخرى، في كثير من الاعتزال والهدوء والوحدانية، وكان عماد قد التصق بوتد خشبي مغروس في الأرض لمّا صادفه في طريقه وأطلق بصره نحوهم في كثير من التنهد والأريحية.

***

وكان الأطفال يطوفون حول الكوخ في كثير من الطلب والحماسة، وأما كعبتهم فكانت ذلك الرجل السمين صاحب البطن المتدلية الذي راح يقطع أرغفة الخبز إلى قطع صغيرة ويجزئها ويمدها إليهم واحدًا واحدًا، حتى إذ تم له ذلك وقل زاده وانتهى، انصرف الأطفال إلى حالهم ودلف هو إلى كوخه في كثير من الإحباط والبؤس.

حينها توجه عماد نحوه، ولما أخذ مكانه الذي كان يوزع الخبز فيه على الصغار، وجد الباب الخشبي مفتوحًا عن آخره، وكان عليه صعود أربع درجات خشبية، فقد كان الكوخ واثبًا في الهواء يرتفع عن الأرض بسنتمترات كثيرة عبر الوقوف على عوارض خشبية متينة وذلك لأجل حماية الكوخ من الأمطار الغزيرة التي قد تغرق الخارج في أي لحظة، وكانت السلالم تنتهي عند شرفة عريضة من الحطبات الممتدة على نحو موصول وعلى امتداد الوجه الأمامي للكوخ.

ولما وقف عليها بكله، ودنا من مدخله، توقف في مكانه ساكنًا بغير قول أو حركة، ولما تنحنح وهمّ بالسلام، تلقفه العجوز بترحيبة بسيطة مفاجئة، بثت في نفسه إحباطًا هزيلًا بحق، ذلك أنه قد أخطأ في تقدير مدى صلابة عيون العجوز واستهان بقوتها مستدلًا عن ذلك بجلادتها الشاحبة المتدلية.

ولما قال العجوز: «تفضل يا بني، لقد كنت في انتظارك»، كان يستدير حينها مبتعدًا عن الطاولة الكبيرة متوجهًا بكوبين من عصير قصب السكر وألقى بواحد منهما في يد الرجل وعماد: «تفضل يا بني، سيعيد لك هذا العصير بعض الطاقة التي فقدتها أثناء رحلتك».

واستلم عماد الكوب ثم ترجع إلى الوراء قليلًا وأنزل محفظته بهدوء على الأرضية، ثم انحنى على كرسي خشبي صغيرة مركون إلى الجدار تلبية للطلبية اللطيفة التي أطلقها نحوه المضيف من أطراف أصابع يده الفارغة.

وعندما أخذ الاثنان كل مكانه، كان السيد ضياء الدين قد غلبته بطنه الكبيرة بحيث أجلسته على كرسي كبير متأرجح موضوع في الزاوية، أخذ كل منهما يحتسي شرابه في هدوء شديد وصمت مديد كأنهما صديقين منذ عهد يصعب تذكره، وكانت تلك فرصة مناسبة لتفقد هذا القصر المتواضع حيث أطلق عماد بصره وراح يجول به بين زوايا الكوخ الأربعة، ذلك أن الكوخ لم يكن يحتوي غير غرفة واحد، يبرز من مركز أرضيته عمود خشبي متوجها نحو الأعلى وناطحًا برأسه ذلك السقف المرتعد الرقيق، وكانت طاولة خشبية مرتفعة قد استندت عليه في لباقة، أما المكتب الصغير فقد هرب بجلده نحو النافذة المفتوحة واستقر تحتها فيما كان المطبخ قد زحف نحو الزاوية البعيدة متشكلًا في بضعة أواني خزفية خشبية وطينية مع فرن صغير وأشياء أخرى من ضروريات المطبخ العصرية، أما غرفة النوم فكانت متواضعة بحق، بحيث أنه وفي أيم لحظة قُدِّر لهذا الكوخ الأسود وصاحبه السمين أن يستقبلا زائرًا أيًّا ما كانت قيمته، فإن غرفة النوم نفسها وفي تلك اللحظة نفسها سوف تتحول إلى غرفة جميلة معدة خصيصًا لاستقبال الضيوف الكرام.

وبعد حدوث رشفات أخرى، كان الصمت قد تكسّر حينها، ولنتلقف بعض الحجارة المرمية التي منها:

- أخبرني يا عماد، من أين تعرف السيد ماو لونج؟

- من نسيبي... (وكذلك رماه الآخر وهو يبعد طرف الكوب عن شفتيه فجأة وقد كان ساهمًا قبل ذلك بكله): إنّ نسيبي رجل أعمال أيضًا، وقد حدث وأن جمع بينهما العمل المشترك سابقًا، وكان من نتاجه هذا التواصل، مع رباطة صداقة سرية متينة.

- ونسيبك هذا قد أرسلك وأوصى بك عند السيد ماو لونج، مُؤمنًا بذلك حياتك عنده! (وكذلك قال العم ضياء الدين وهو يحكم عصر يديه إلى بعضهما).

- أجل، لكن لا! أنا من أصررت على ذلك، وليس هو من أرسلني، أي أنّه قد بحث في جيبه قليلًا، ولم يستطع الخروج بأي مساعدة أخرى سوى هذا، وليباركه الله على ذلك!

ومما حدث في ذلك المكتب حينها أن عماد ونسيبه السيد عادل قد تجادلا في الأمر مطولًا، وكانت الغلبة لعماد عزم أمره وأصر على القيام بالمغامرة، لكن السيد عادل لم يستسلم له بسهولة فحاول تقليل خسائره المعنوية من خلال الإصرار على بعث رفيق يؤنس وحدة صهره خلال الرحلة، لكن عماد ركب رأسه مرة ثانية وأوصل الأمر إلى حجر ورقة مقص وفاز باللعبة، وبذلك تمكن من التملص من حنان نسيبه الزائد عن حده والذي يعده في مرتبة والده...

قام العام ضياء الدين عن مكانه تاركًا وراءه كرسيه العزيز يتأرجح لوحده متوجها نحو نافذة قريبة حيث راح يطل عبرها نحو القرية، فيما كانت إحدى يديه لا تزال ممسكة بكوب العصير وقال:

- أعلم أن نسيبك قد سبق له وأن أخبرك بهذا، لكنني سأحاول صياغته لك بطريقة أخرى«ماو لونج» هو أحد أصدقائي المقربين الذين يمكن أن أئتمنه على حياتي، صحيح أنّ له علاقات مع شخصيات مرموقة في البلد، وذلك طبيعي جدًّا كونه رجل أعمال والأمر يقتضي عليه ذلك، كما قد يبدو لك من الوهلة الأولى أنه يتعامل معهم ويساندهم بشكل مباشر، خاصة وأنه ليس من أقلية الروهينجا، ولم يولد بالمنطقة... (ولبث قليلًا يرشف العصير، أكمل بعدها): لكن ذلك لا يتعدى كونه مجرد تمثيل لا أكثر، فهو يحمل في قلبه حقدًا كبيرًا لا يقل حجمه عن حقدنا لسياسة البلد، فهو رجل نزيه متدين يميز الحق من الباطل، غير أنه يخفي كل ذلك كي يحمي نفسه وأعماله وأهدافه الخفية، لذلك احذر من أن تقوم بأي غلط قد يعرضه لخطر كشف نسفه!

وكان التوتر قد ران على وجه عماد مع آخر الكلمات التحذيرية، وإذ أخذ نفسًا لا بد منه فقد قال بعدها:

- طبعًا، طبعًا يا سيدي، سأكون حذرًا جدًّا!

وارتفع صوت الأذان في السماء معلنًا عن الموعد للقاء الله وطرح الشكوى إليه.

***

أفرغ الاثنان الماء على بعضهما البعض من طست صغير تقاسماه، حتى إذا ما وفقا للوضوء التام انطلقا في غير ما تأخير نحو مصدر النداء، وكما توقع عماد من نبرة صوت المؤذن الطبيعية جدًّا، ذلك أن المسجد كان يشبه لحد بعيد ذلك الذي سبق له وأن صلى فيه عندما كان في المخيم.

عدة أعمدة خشبية تخرج من الأرض متوجهة نحو الأعلى، رافعة بذلك عددًا لا بأس به من القصبات المتجاورة تغطيها قطع من أوراق الأشجار المرمية فوقها ليتشكل لديهم بذلك سقف المسجد الذي يستظل به المصلون من حرارة الشمس، ويحتمون به عن قطرات المطر الباردة، أما الأرضية فنصفها مفرش بزرابي تقليدية الصنع، ونصفها الآخر على حاله تراب في تراب، ذلك أن مسجد القرية قد تم هدمه منذ فترة بعيدة، كما وقطعت عنهم الكهرباء منذ فترة أبعد من ذاك بكثير، وكان الجالسون قد تقاسموا مختلف الأعمار والأطوال، والذين عمروا مساحة المسجد الممتدة خارج السقف أيضًا، فلم تكن للمسجد جدران تحده، وما باليد حيلة، هكذا يلجئون إلى

الأرض المجردة الطاهرة بعدما هدموا مساجدهم ومنعوهم عنها.

وانضم عماد وضياء الدين إلى صفوف المصلين، حتى إذا ما تمت الفريضة وانقلب أغلب المصلين إلى أشغالهم، لزم الاثنان مكانيهما يراقبان مجموعة من الأطفال الذي شكلوا نصف دائرة صغيرة وأحاطوا شيخًا كبيرًا ذا لحية حمراء ضاربة في ذقنه بأجسادهم الهزيلة، فجلس الشيخ إليهم يتلو بعض الآيات القرآنية فيما راح الصغار يعيدون وراءه بصوت جماعي وفي كثير من الاهتمام البريء والعيون المترقرقة، بعد لحظات مرت قام ضياء الدين وتقدم نحو الأطفال وقاطعهم في كثير من الاعتذار واللطافة، وحدثهم بشيء لم يستطع عماد أن يفهم منهم شيئًا، ذلك أنه تحدث إليهم بلغتهم البورمية، فنظر الأطفال جميعهم إلى عماد الذي كان لا يزال في مكانه يراقبهم بغرابة وخجل، حتى إذا ما ناداه ضياء الدين، قام عن مكانه وتوجه إليهم، فقال له ضياء الدين بشيء من بسمة ماكرة، والواقع أنه هو من جاء بهذه الفكرة: «إنّ الأطفال يرغبون في سماع شيء من القرآن الكريم على لسان عربي أصيل»، وكانت تلك الكلمات قد بثت من التوتر في قلب عماد ما ترجمته ملامحه بشكل واضح لا لبس فيه من خلال تعثر ابتسامته الآخذة في النشوء، والتي تراجعت إلى دهشة وتنقيل البصر بين الصغار بصمت فارغ.

«في الحقيقة أنا من يريد الاستماع إليهم، ولدي رغبة شديدة في ذلك»... كذلك قال عماد لمّا ابتلع ريقه خفية.

وقابلها ضياء الدين بابتسامة صادقة: «لا بأس!» متوجهًا بنظراته نحو أحد الصغار، ست أو سبع سنوات لا أكثر، وبعد أن وجه إليه طلبًا في كثير من الرجاء قام الطفل عن مكانه وراح يتلو: «إذا جاء نصر الله والفتح...» وما إن نطق الصغير بأول آيتين كريمتين حتى أخذت جيوش من النمل الخفية تسري في جسد عماد وتعظه بهمجية بالغة، وذلك ما أحدث رعشة واضحة اهتز لها كل جسده، فكان صوت الصغير جوهريًّا، وجوهريًّا جدًّا، وعذبًا جدًّا، أكثر من اللازم، يتسلل إلى القلب قبل الأذن من دون إذن وبشكل بريء جدًّا، بحيث يخبرك بأمور أكثر من التي تسمعها، ليأخذك بعيدًا عن الأجساد الشاحبة، عن سقف المسجد وجدرانه الخفية، عن القرية وعن الأحراش المحيطة، وعن البلد وعن الكوكب، وعن كل شيء، ويلقي بك بعيدًا هناك، وسط النجوم، ويجبر بعض العبرات الساخنة على الخروج من ينبوعها والسقوط نحو الأسفل، وفي آخر آية فقط عندما يسكت الصغير، حينها فقط تدرك ذلك، بأنك تبكي، وأن دمعات قد ترسبت على وجهك.

مسح عماد تحت عينيه براحة يده، ولملم شتات أفكاره، فيما عاد الطفل إلى مكانه وجلس في هدوء بالغ، وكان ضياء الدين فتح حوارًا مع معلمهم ذي اللحية الملونة وتكلم إليه بمفردات عربية خالصة.

استدار بعدها ملوحًا بيده نحو عماد الذي كان غارقًا في وجوه الأطفال وصرخاتهم، وتدحرج الثلاثة إلى آخر المسجد حيث أوجدوا لأنفسهم أماكن مناسبة وجلسوا عليها، وتحدثوا قليلًا حتى فهم الجميع لما اجتمعوا هكذا، فكان دور الكلام قد انتقل إلى الشيخ الهزيل الذي راح يهز شفتيه قائلًا:

«وقبل فترة زمنية ليست بالبعيدة، وقعت مذبحة مروعة بالقرب من هنا حيث اعترضت مجموعة من البوذيين حافلة كانت تقل عشرة من الدعاة حفظة القرآن الذين كانوا يطوفون القرى المسلمة يحفظونهم القرآن ويدعونهم إلى الله تعالى، ويزوجونهم ويعلمونهم شؤون دينهم، فلما أمسكوا بهم أخذوا يحرقون لحاهم ويعذبونهم، ثم أخذوا يطعنون الدعاة بالسكاكين ويقطعون أيديهم وأرجلهم، ثم أخذوا يربطون الواحد منهم من لسانه وينزعونه من حلقه بغير أدنى رحمة أو شفقة، حتى لفظوا أنفاسهم الأخيرة على تلك الصورة، فثار المسلمون دفاعًا عن دعاتهم وأئمة مساجدهم، فوجد البوذيون أن تلك فرصة وعذرًا مناسبًا كان يبحثون عنه ليلًا ونهارًا، فأقبلوا عليهم يحرقون القرية تلو الأخرى، حتى تجاوز عدد المنازل المحرقة أكثر من ألفي منزل مات فيها من مات، وفر منهم من فر عبر الغابات أو النهر، كما وأخذوا يحرقون المساجد ويهدمونها لحقدهم الدفين على هذا الدين وقد نال الأطفال نصيبهم من كل هذا... (وإذ به وجّه ذراعه نحوهم، وأضاف بعدها): ومعظم هؤلاء هم يتامى، فقدوا

آباءهم وأمهاتهم، فلم يجدوا غير المسجد، وكلام الله ليؤنسوا وحدتهم ويحصلوا على قوة لمواصلة الحياة».

ولمّا واصل الشيخ طرح المزيد من تلك الكلمات اللطيفة من فمه، كان عماد قد ركن إلى شروده مرة أخرى، وغاص في حزنه الثقيل على قلبه، حتى أعاده صوت صديقه إلى المجلس:

«طبعًا يا شيخنا، أعدك سأفعل ما بوسعي من أجل إيصال آلامكم بعيدًا عن هنا».

ثم وجد نفسه يجر ساقيه خارج المسجد وكلمات الشكر والامتنان لا زالت تضربه على مؤخرة رأسه.

في طريقهما إلى العودة نحو الكوخ، كان مشيهما صامتًا من غير كلام، حيث كان كل واحد منها شاردًا في أشيائه الخاصة، لكن عندما اقتربا من الكوخ كفاية تكلم أحدهما أخيرًا وقال من غير ما مقدمات:

«ذلك الطفل الذي أسمعنا بعض ما يحفظه من القرآن الكريم!»

وارتدت نظرات عماد عن السابلة ممن حولهم متوجهة إلى صاحبه الذي لم يمهله الفرصة ليترجم انفعاله إلى كلمات حيث أضاف قائلًا فيما لا يزالان يتمشيان نحو الكوخ:

«لقد كان له أخ أكبر منه، يفوقه بعشر سنوات ربما، وكان يحفظ أجزاء لا بأس بها من القرآن، وكان له صوت مميز جدًّا،

صوت تخشع له القلوب، لكن البوذيين ولحقدهم وسواد قلوبهم على هذا الدين، أخذوه وقاموا بقتله ورميه وسط الشارع مثقلاً بدمائه، طفل صغير لم يتجاوز السابعة عشر بعد، ذنبه الوحيد أنه كان يصدح بصوته عاليًا بكلام الله، ويظهره في أبهى حلّة، وذلك ما لم يستسيغوه كثيرًا، أما هذا الصغير فقرر أن يحذو حذو أخيه الأكبر، وأن يحفظ القرآن الكريم كاملاً، وسيكون ذلك بالنسبة له انتقامًا ممن قتلوا شقيقه».

ولما انتهى، مرر نظرات مسترقة نحو عماد، فوجده وقد أطبق على شفتيه وراح يهرسهما من شدة الغيظ الذي اعتراه، وزاده قائلاً:

«وكما ترى، وسط هذه الظروف التي تسقط أعتى الرجال قهرًا، ترى الأطفال هنا وقد أصبحوا أكثر إصرارًا على التمسك بدينهم، على كل حال، انتظرني هنا، سوف أعود فورًا».

ثم اختفى وراء الكوخ فيما بقي عماد واقفًا ينتظر عند النافذة، ولم تمر لحظات كثيرة حتى ظهر ضياء الدين مرة أخرى، وكان يلهث هذه المرة، إذ أنه جاء يجر معه سلمًا خشبيًّا طويلاً مع بعض الأدوات العملية في يده الأخرى قال بعدها:

«خذ هذا (وناوله السّلم) اصعد إلى السطح وانتظرني ريثما أوافيك إلى هناك!»

-٧-

على السطح الخشبي المائل وقف عماد يراقب القرية ومنازلها المنتشرة بشكل عشوائي هنا وهناك، وكان هدوء المساء ينسدل عليها بكله من أعلى، وتنقلت عيناه إلى الشمس المختبئة خلف الغيوم الحمراء.

وكانت بعض الخيوط المتسربة عنها قد تساقطت على عينيه الضعيفتين ودفعت بهما نحو الأسفل قليلًا حيث تلقفها ألسنة دخان أسود كانت تتصاعد من خلف الغابة، وكان ضياء الدين قد لحق به حينها إذ ناداه قائلًا:

«عماد، تعالَ هنا وساعدني قليلًا!»

فتنحى الأخير عن مكانه ودنا قليلًا من الحافة حيث أحنى جسمه وأمسك عنه ألواحًا خشبية ومطرقة صغيرة وتراجع إلى الوراء فاسحًا بذلك المجال لصديقه الذي ما إن وطأت قدماه السطح حتى غلبته بطنه الكبيرة وجلس تحتها وقال:

«أترى كم أن المنظر جميل من هنا، أظن تلك السحب تعقد اجتماعًا طارئًا قد تصل نتائجه إلى تبليل القرية هذه الليلة،

وهذا الكوخ لا يزال طريًّا على تلك القرارات، فالسقف بحاجة لبعض الدعامات هنا كما ترى»

وأشار بيده نحو موضع قريب من جلوسه، ثم أخذ المطرقة عن مساعده وعدل من وضعية جلوسه مع قليل من اللهثات المسموعة، ثم أخذ يغرس مسمارًا على إحدى الألواح بعدما ألصقها على موضع إشارته، وأضاف غمغمة قال فيها:

- آه... لم أخبرك، هذا رابع منزل أسكنه منذ بدأوا في مطاردتي وترحيلي...

- وهل طردوك أنت أيضًا! (كذلك قال عماد مظهرًا الكثير من الدهشة على ملامحه).

فرد النجار السمين قائلًا:

- أجل، وهل رأيت من قبل سياسيًّا يعيش في مكان كهذا!

- لا... (كذلك قال عماد وقد ركبه بعض الخجل) لكنني فكرت في أن هنالك سببًا آخر غير الذي ذكرته.

- لا، ليس هنالك سبب آخر، لقد طردت من بيتي، وعُرقلت عن عملي كما حدث مع الكثيرين هنا، ولولا مكانتي لكنت الآن ميتًا بكل تأكيد، غير أنني كلما استقررت في قرية ما، قاموا بهدم الكوخ على رأسي وطردي منها، والآن ناولني قطعة أخرى!

رفع عماد قطعة خشبية وناوله إياها، وكأنه لم يسمع ما كان يقوله ضياء الدين فلم يعلق على ذلك لغاية في نفسه، ثم استدار نحوى مغيب الشمس وقال:

- هنالك دخان يصعد خلف الغابة، هل توجد منازل هناك أيضًا؟

- أجل... (قال ضياء الدين بصوت شبه مفهوم وهو يعض على أحد المسامير بين أسنانه، ثم أخذه وغرسه على اللوح الخشبي وأضاف بعدما تحرر لسانه): توجد بعض المنازل هناك، وهي تابعة لقرية أخرى تقع وراء الغابة، والتي اختفى المسلمون منها عن آخرهم بعدما تعرض لهم البوذيون وطاردوهم حتى خلت لهم المنطقة واستوطنوها، وأخذوا ينهلون من خيراتها، ولا شك سوف يستولون على تلك المتبقية أيضًا، كل الحقول والأشجار المثمرة هناك أصبحت في أيديهم جاهزة فجأة، فقد انتظروا أصحابها حتى جعلوها جنة خضراء ثم انهالوا عليها، وذلك الطفل الصغير من المسجد قد ولد هناك وعاش فيها، وشاهد شقيقه الأكبر ملقى جثة هامدة وسط الطريق الذي كانا يلعبان فيه معًا، قبل أن يحالفه الحظ وينجو بنفسه إلى هنا. (ثم رفع يده عن الخشب وأخذ يحك رأسه والمطرقة لا تزال بين أصابعه، ثم قال وقد تغير صوته

فجأة إلى ترددات متقطعة كمن يوشك على البكاء):
أنا، أنا، أنا لا!

لاحظ عماد ما كان يترسم على وجه ضياء الدين من سحابات حمراء نتيجة الغضب العارم الذي اعتراه فجأة، حتى أنه هز رأسه بعنف وأخذ يرفع المطرقة عاليًا وينزلها على رأس المسمار بوحشية بالغة، وعلى الأرجح أنه لم يلاحظ ذلك التغير السريع في تنفسه وفي ملامحه وفي ضرباته، وكان ذلك مجرد فعل طبيعي لا بد منه لإطفاء الغضب -كذلك فسر عماد الأمر إذ لم يبد أي رد فعل واضح- بينما مسح النجار الغاضب جبينه في عنف وقال بعدها:

- تلك القطعة ليست في مكانها، حركها قليلًا نحو الأعلى!
هكذا! جيدًا! أحسنت... وانهال عليها...

***

مشكلتنا نحن هي أننا منهمكون في قتال بعضنا البعض بأحدث الأسلحة المتطورة، فيما نقاتل أعداءنا الحقيقيين برفع الأكف والدعاء، هذا يكفي، لكنه لا يكفي، الدعاء وحده لا يكفي، الله لن ينزل ريحًا تجوب الأرض وتقتل الكفار، أو تهديهم سواء السبيل.

ولن ينزل صرخة تسمعها آذان دون أخرى...

ولن يحرك الأرض تحت أقدام دون أخرى...

الله لن ينقذنا بهذه الطريقة، الله ينقذ دينه دومًا، لكن المسلمين يموتون على أي حال، لكن كان الأفضل لو أنهم ماتوا بطريقة أخرى، لو عاشوا بطريقة أخرى، ولأن لو تفتح عمل الشيطان، لذلك، لو يعيشون بطريقة أخرى ولو يموتون بطريقة أخرى، في الحديث عن المستقبل هي لا تفتحه.

لو أننا نعقل الناقة ونتوكل، وساهمون نحن في حياتنا الحلوة، نحن في الجنة، نعيش، نأكل، نلبس ونشرب وننام ونستيقظ، ونستعمل الحمام براحة، اعترف أنك تقضي حاجتك بغير تعجل ودون خوف من أن تغرس نصل حادة في ظهرك فجأة!

لماذا فينا من يشتري رقم سيارة بنصف مليون ريال لأن رقم اللوحة يتطابق مع تاريخ ميلاد زوجته؟

لماذا يشتري أحدنا صقرًا ذهبيًّا بنصف مليون درهم ليصطاد به الأرانب؟

لماذا يشتري الواحد منا هاتف (آيفون) بقيمة مليون ريال شرط أن يكون هو أول من يحصل عليه في بلاده؟

وآخر نذر وذبح خمسين جملًا يوم عرس ابنه، لمدعوين لم يتعد عددهم المائتين وخمسين شخصًا، مع أن جملًا واحدًا يكفي ضعفهم...

ونحقق رقمًا قياسيًّا في طبخ أكبر طبق شوربة باللحم، فقط كي نسجلها في موسوعة (غينيس) ثم نشطفها بمركبة شطف ونرمي بها مع القمامة...

أو قد نشتري تيسًا أصليًّا بقيمة ثلاثة عشر مليون ريال، وآخر يحجز طائرة خاصة بكاملها، مقعد له والباقي لصقوره المبجلة...

ونقيم حفلات غنائية نحظر فيها المطربين ليتخموا أسماعنا بأصواتهم النتنة ثم نعبئ حقائبهم بمبالغ مالية لو عاش إمام مسجد ضعف حياته لما استطاع تحصيل مثلها...

وصف ابن خلدون في مقدمته العرب فقال: بأنهم همجيون في الأصل لولا أن الإسلام ضبط تصرفاتهم ورباهم، ومع ذلك، طبعًا ليس الجميع، فهنالك من يتقطع قلبه ويبكي كلما شاهد أخته وهي تحرق بالنار وتصرخ عارية على اليوتيوب...

وحل الليل وظهر القمر جليًّا في السماء، وزينت النجوم ما تبقى ظاهرًا منها، إذ أن السحب السوداء قد أتت على أغلبها وغلفتها في حلكة مخيفة تنذر بليلة ماطرة، وكان الصاحبان قد أوجدا مكانين على الشرفة الصغيرة عند الباب، حيث جلسا على كراسٍ خشبية منخفضة فيما أسندا ظهريهما إلى الجدار على يسار المدخل، وكل قد حمل كل منهما كوبًا من الشاي الساخن في يده.

وكان ضياء الدين قد أبعد حافة الكوب عن شفتيه عندما راح يسرد هذه الأجوبة:

- بالنسبة لموظفي الأمم المتحدة، فإن الحديث عن هذا الموضوع أصبح من المحرمات تقريبًا، وقد تجنبت العديد من بياناتها الصحفية عن ولاية راخين استخدام كلمة (روهينجا) تمامًا، كما أنّ الحكومة البورمية لا تستخدم هذه الكلمة أيضًا، ولا تعترف بهم كمجموعة متميزة وتفضل أن تطلق عليهم (البنغاليين)، وحتى الاجتماعات التي تقام خلف الأبواب لهذه الهيئة لا يتم التطرق فيها إلى هذا الموضوع أبدًا، ولا حتى طرح أسئلة عن ذلك، بل وأن ذلك غير مقبول تمامًا، وحتى الذين تجاوزوا حدودهم في هذا الأمر وتحدثوا عنه نالوا عقوبات مباشرة منها، عدم دعوتهم لأي اجتماع مع مسئولي الهيئة، وتم طرد عدة موظفين لنفس السبب، واستبعاد وتجميد عمل آخرين، ببساطة، لا يمكن مناقشة قضيتنا على تلك الطاولة والتي من المفترض أنها وضعت لهكذا أغراض...

وكان عماد قد تاه في البخار المتصاعد من كوب الشاي الذي في يده بينما راح يرتب أفكاره وكل المعلومات التي تلقاها، ثم هز رأسه وكأسه متضايقًا وقال:

- وماذا عن مستشارة البلد؟! ألم تنل جائزة نوبل للسلام بسبب سعيها لإيقاف هذه المهزلة؟ حتى أنها تعرضت للإقامة الجبرية بسبب عنادها على ذلك، فلماذا لم تقم بأي حركة في صالحهم؟!

- بلى، هذا صحيح... (كذلك قال ضياء الدين وهو يبعد شاربيه عن طرف الكوب الساخن، وأضاف قائلًا): كان ذلك قبل أن تستلم زمام السلطة وتصعد على رأس حزبها إلى قمة الهرم في هذا البلد، وكأن كل ما سبق وعاشته لأجلهم كان مجرد مسرحية تمثيلية للوصول إلى أهدافها على حسابهم، على كل حال، تلك الأيادي العليا، لو وجد أنها ستبقى على مبادئها، وأنها ستعمل لأجل إحلال السلام في المنطقة لما سمحوا لها بالوصول إلى هناك أصلًا.

ورفع عماد بصره نحو ضياء الدين وقال بشيء من الغباء غير المقصود:

- أيادٍ؟!!

فنظر إليه ضياء الدين بدوره، لكن بنظرات متراخية معاتبة في الوقت نفسه، ثم مال برأسه على الجدار، وقال بعد تنهيدة صغيرة:

- تتعرض «سان سوتشي» الآن إلى انتقادات حادة بسبب التزامها الصمت على ما يحدث هنا، حتى أنه تمت المطالبة بسحب الجائزة منها، لكن ذلك غير ممكن أبدًا، لأن قانون الجائزة ينص على أنه وبعد استلامها فلا يحق سحبها من صاحبها أبدًا، مهما حدث بعدها (وغلبته ضحكة خفيفة) إنها قد صرّحت للمراسلين وأكثر من مرة، بأنها لا تعلم إذا كان من الممكن اعتبار أقلية الروهينجا مواطنين بورميين أم لا، لكن الأمر واضح، واضح جدًّا...

ولمّا هم عماد بطرح استفساره، كان ضياء الدين قد أخذ تلك الفترة ليستعيد أنفاسه ليس إلا، إذ أنه أمال رأسه نحو رجليه قليلًا وراح يغمغم:

- نحن مسلمون، والمستشارة وبلدها يعتنقون الديانة البوذية، الأمر واضح.

فقاطعه عماد:

- هي وبلدها!

فقال ضياء الدين بعدما تخلص من نوبة سعال صغيرة كانت قد أخذته على حين غرة:

- أجل، وفي اعتقادي أنك تعلم بأنّ أرض الروهينجا في الأصل هي ليست جزءًا من بورما، وأنهم قد استوطنوها وضموها إليهم بالقوة، كما يفعل أي محتل آخر، لذلك هم يقتلوننا، خشية انتشار الإسلام في البلد على حساب البوذية... (ولما شعر بأن البرد قد بدأ يتسلل إلى داخله، أمسك باللحاف الذي على جسمه، ولفه حول نفسه جيدًا ثم أخرج نفسًا بخاريًّا وأضاف قائلًا): حتى أنّ الرهبان البوذيون هنا يعلنون ذلك بصراحة قائلين، لا نريد أن يحدث لبلدنا كما حدث في ماليزيا وإندونيسيا، لن نسمح بذلك، سوف نقتل المسلمين ونطردهم بعيدًا، إذًا القتل هنا هو قتل لحساب الديانة لا أكثر، على الأقل ذلك بالنسبة لمن يحملون العصي والشفرات الحادة، ويركضون وراء المسلمين العرايا العزل.

لم يفهم عماد ما كان يقصده ضياء الدين بذلك التحديد الذي وضعه في حديثه، ولم حصر القتل لأجل الديانة على تلك الفئة بعينها، وكان المحدث بعد الاستراحة الصغيرة التي أخذها لنفسه قد واصل حديثه قائلًا:

- ما يحدث هنا هو تطهير عرقي وديني واضح، لكن من يخبر العالم بهذا... (ثم أنه أحدث تلك النبرة الصغيرة، وكأنه يحدث نفسه): من يخبر العالم

بهذا؟! لكن العالم يعلم هذا، عفوًا، من يقنع العالم بتغير موقفه... (ثم رفع رأسه الثقيل نحو النجوم فبدا أنفه وقد تلون باللون الأحمر، فأصدر به صوت (شخرة) وقال): حتمًا سوف أصاب بالزكام هذه الليلة، هل لديك سؤال آخر؟

- نعم... (كذلك أجاب عماد في حماسة) أحتاج ملخصًا عن طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية هنا، وعن ظروف الدين الإسلامي هنا بشكل خاص إذا أمكن.

وضع ضياء الدين كوب الشاي الفارغ تقريبًا على الأرضية وراح يفرك يديه من شدة البرد القارص، ثم أدخلهما تحت اللحاف وقال:

- إن هذا البلد هو بلد زراعي بالدرجة الأولى، حيث يعيش ثلاثة أرباع أهله على الزراعة، وخاصة الأرز، فهو الغذاء الأساسي هنا، كذلك الذرة والبذور الزيتية، والمطاط وقصب السكر، وتشغل الغابات مساحات شاسعة من البلد، ولهذا يعتبر الخشب الجيد من أهم صادراتها، إلى جانب بعض المعادن مثل القصدير، الرصاص والألومنيوم، وكذلك البترول، هذا عن البلد بصفة عامة، أمّا عن الإسلام، فيوجد مئات المساجد في البلد، لا سيما في منطقتنا هنا، لكن السلطات أحرقت العديد منها حتى الآن، وهي في تناقص

مستمر، وقد تمت ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة البورمية، لكن لم يطبع منها إلا الأجزاء السبعة الأولى للأسف، والمسلمون هنا في أمس الحاجة إلى النسخ مترجمة المعاني كاملًا، كما توجد مدارس إسلامية في العديد من المساجد إلا أنها في مستوى سيء للغاية من حيث المناهج الدراسية، لذا فهي بحاجة إلى دعم ثقافي ومادي، وبحاجة إلى تطوير مناهجها ومدها بمدرسين مؤهلين لإبعاد شبح الجهل الذي يتخطف أبناءنا هنا، بالإضافة إلى كل هذا، فعدد المسلمين في تناقص مستمر، كلما دارت علينا مطية الليل والنهار، مستقبلنا مجهول تمامًا إلى الآن... (وتبعت كل هذا الكلام زفرة عظيمة من الهواء الساخن).

رفع عماد هاتفه من على حجره وأوقف شريط التسجيل الذي كان يدور منذ نصف ساعة وقال:

- شكرًا جزيلًا لك يا سيدي! لقد كانت المعلومات التي قدمتها جد قيمة، وأعتقد أنه لم يعد من سبب يرغمك على المكوث في هذا البرد أكثر من هذا...

- أجل... (كذلك قال ضياء الدين وهو يقوم عن مكانه يجر غطاءه) لقد جفت مفاصلي، سوف أخلد للنوم حالًا فدعني أتمنى لك ليلة طيبة...

وعندما هم بالدخول غمغم عماد من ورائه قائلًا:

- أما أنا فبحاجة لمزيد من الوقت حتى يباغتني النعاس، لذا هل يمكنني استعارة مكتبك لبعض الوقت؟!

- بالطبع يا عماد، افعل ما تشاء!

قال العجوز ثم دلف إلى الداخل وانزوى في فراشه، وقف عماد عن مكانه أيضًا مرتديًّا لحافه القطني وأخذ يحدق نحو النجوم القليلة الظاهرة وسط السحب السوداء المتراكمة، وكانت بعض الخفافيش المتطايرة تقطع سهماته بين لحظة وأخرى تلاعب بعضها أو تطارد فرائسها في ضجة هادئة، ثم نزل بهما نحو الغابة المظلمة، والتي كانت تصدر منها أصوات الحيوانات الليلية، صوت البوم، وأصوات الصراصير، وبعض العواءات المتقطعة، وكانت تبرز من داخل الغابة عيون ساطعة تظهر وتختفي فجأة، ولمّا ملأ روحه بتلك السكينة الروحية دلف بدوره إلى الداخل، وجعل المزاليق تنزل في مكانها حيث أوصد الباب جيدًا ثم توجه نحو المكتب الصغيرة وجلس إليه، وكان ضوء القمر المتكشف قد تسرب عبر النافذة وتكسر بشكل جميل على القلم ذي الصبغة الزرقاء والكراسة الصغيرة التي بجانبه.

وحيث خاض عماد في انهماكة شديدة على كتابة أحداث يومه لم أجد بدًا من مشاركته شيئًا صغيرًا كنت قد ادخرته في نفسي منذ سويعات قليلة.

- عماد! أعلم أنك مشغول قليلًا، لكن...

- تكلم...

- آه، حسنًا، مساء البارحة، بعد صلاة العصر مباشرة، عندما رغب الأطفال في سماع شيء من القرآن الذي تحفظه، امتنعت ورفضت ذلك بشكل مؤدب، هل لي أن...

- لقد كنت خجلًا من نفسي، خجلًا جدًّا، ولأكون صريحًا معك، فقد خفت أن يطلبوا مني قراءة سورة لا أحفظها، أنا وقد تجاوزت الثلاثين، لا أحفظ من كلام الله سوى قصار السور كي أستعملها في الصلوات المفروضة، اليوم فقط انتبهت إلى نفسي عندما رأيت الصغار يصرخون على الألواح الخشبية وبطونهم ملتصقة بظهورهم من وطأة الجوع الذي يعانون منه، ومع ذلك يصرخون ويصرخون ويحفظون متجاهلين بذلك كل الألم الذي يحدثه الصراخ في البطن الجائعة، تذكرت نفسي حياتي التي أعيشها في وطني، كل تلك الأيام السعيدة المتشابهة، من تناول الفطور صباحًا مع عائلتي، وقيادة السيارة، وتقليب الأوراق والتقاط الصور، ثم قيادة السيارة مرة أخرى في المساء، واجتماع آخر مع العائلة للعشاء، والنوم في أحضان زوجتي، وتتقلب الصفحات، هكذا أيامي، والعبادة لم تتعدَّ يومًا كونها تشكيل لتلك الأحرف.

وتذكرت ابنتي مريم، التي لطالما كان حلمها أن تصبح فنانة عظيمة، وأنا من دفعتها لذلك، فكلما رددت كلمات وجدت نفسي أصفق لها بحرارة وأقبلها، لديك صوت جميل جدًّا، أقول لها، ولست أذكر آخر مرة أجلستها في حضني وشرحت لها ما تعنيه بعض كلمات القرآن الكريم ولم أخبرها عن «الصراط المستقيم» أنه بالنسبة إلى طفل يكون كطريق ترابية جميلة تحفها الحشائش والأزهار والفراشات وأنه لا يمشي فيها إلا من يواظب على صلواته وخاصة الصغار منهم... وعن الكوثر وأنه نهر النبي نفسه، وهو نهر عذب بارد ولا يستشعر عذوبته ولا يشرب منه إلا من أطاع النبي حق طاعته، وعن العاديات وأنها أحصنة جميلة يتطاير شعرها إلى الوراء عندما تنطلق للعدو قبل شروق الشمس كل صباح... لم أخبرها بهذا قط، هي في سن أولئك الصغار، عشر سنوات فقط، لكن الفرق بين ما يعيشونه ويفعلونه كبير جدًّا، كما تكبر الشمس القمر، وكما يكبر القمر رأسي الغبي، أتعلم؟! إذا كنت سأعود إلى بيتي لأواصل العيش بتلك الطريقة، فخير لي أن أذبح ها هنا ولا أرجع أبدًا، أقسم لك، لو تعلم كم أنا خجل من نفسي، جدًّا...

ونزلت عبراته، فطوى أوراقه وأقلامه بعدما أنهى كتابة ملاحظاته الكئيبة، ثم وقف على ساقيه الباردتين ينظر عبر النافذة نحو خيوط الضوء الباهتة المتكسرة تحت قطرات المطر التي بدأت تتساقط على الأرض، فكان التراب يرد الجميل، ويبعث تلك الروائح الصدئة المهدئة للأعصاب، وبعضها كان

يسقط على الكوخ في شكل خيوط شفافة فيتبعثر وجهها على السقف وتنتهي فجأة، لكن صوتها لا ينقطع حينها، بل يتسرب عبر السقف لتواصل روح القطرة رحلتها عموديًّا عبر فضاء الغرفة، ويتكسر رأسها الآخر على الأرضية الخشبية، أو على رأسيهما.

***

صوت ضربات قوية وسريعة أخذت تتساقط في تلك اللحظة على الباب الخشبي، وكأن صاحبها قد عزم الأمر على اقتلاع المزاليج من مكانها من الخارج، استدار عماد فجأة بعدما كان سارحًا وهائمًا في السحب ووجه نظراته الهالعة الصامتة المترنحة نحو الباب، وكانت خيالات كثيرة قد تسارعت إلى رأسه لتفسر تلك الظاهرة الليلة التي لا تحدث كل ليلة، وكان الغطاء المكور على الأرضية قد نفض نفسه، ووثب يجر نفسه نحو الباب يفتح مزاليجها في سرعة شديدة.

على سطح المكتب الصغير جلس عماد في هدوء تاركًا رجليه تترنحان في الهواء، فيما راح يراقب ذلك الجمع الصغير من البشر الهادرين في توتر وتحمس جد واضحين، ولمّا كانت عيناه تلعبان في حجرتيهما، وكانت أذناه المخذولتان تمتدان في غير ما نتيجة نحو أصواتهم، إذ ومع أنها كانت تسمع ما يدور بينهم إلا أنها لم تكن قد فهمت منه شيئًا، وكان هناك اثنان مظهرهما يعطي دلالة كبيرة على أنهم قد ركضا طويلًا تحت المطر،

قاطعين بذلك سيلًا من الأحراش الممتدة، ذلك بأن ملابسهما كانت مبتلة عن آخرها، وكانت أقدامهما الملتحفة بنعال بسيطة قد تكورت داخل نعال أخرى من الطين المتراكم عليها، وراحت الفتاة تمسح قطرات الماء الهابطة من شعرها على وجهها على فترات زمنية متجاورة، وكانت عيونها الرمادية تخبر عن كثير من الهيجان والحماسة لأمر ما، وبين ذلك كانت تضع يدها على موضع في ذراعها، وقد تم لفته بقطعة قماش حمراء بين الفينة والأخرى، وكأنه كان يحدث لها ألمًا أزعجها، إذ أن بعض القطرات الحمراء كانت تتسرب منه، وكان الشاب الآخر الذي بجانبها منهمكًا في تضميد بعض الجراح الصغيرة على ساقه بملقط وقطعة قطن صغيرة حصل عليهما من إحدى زوايا الغرفة المظلمة، وبينا كان الحديث يصاغ بين ضياء الدين وبين الفتاة في عجالة، كانت تجد بين كل لحظة وأخرى متسعًا من الفراغ لترمق عماد بنظرة خاطفة، وإذا كان عماد لا يقوى على النظر إلى عينها مباشرة فقد كان يشيح به بعيدًا في كل مرة، كانت كأنثى فهد صياد مصابة، فنظراتها الجانبية كانت تخفي الكثير من الأمور المشتركة بينهما، ولمّا تم لهما الأمر الذي استبقا الباب قبل قليل لأجله، واختفيا في الظلام كما ظهرا أول مرة، تنهد الزائر المرعوب في راحة أخيرًا، وقال مغمغمًا لما أعاد الباب إلى مكانه:

- هل أكون متطفلًا لو سألتك عنهما؟!!

أعاد ضياء الدين المزاليج إلى مكانها، ثم جلس على كرسي خفيض وأخفى وجهه تحت يديه لوهلة، ثم أبعدهما لتتكشف على وجهه ملامح الحيرة وشيء من القلق، وواضح أن كلام تلك الفتاة كان له دور كبير في ذلك، وقال حيث راح يرفع حاجبيه ليخفي توتره:

- لا، لا أحد، مجرد صديقين أعرفهما.

وتبدل وجه عماد بدوره ليصبح أكثر صرامة:

- حسنًا، لقد كانت تلك الفتاة ترمقني بنظرات غريبة، وقبل رحيلهما مباشرة تحدثت إليك بشيء أحسست كثيرًا أنني كنت موضوعًا مهمًّا فيه، فهل أنا محق؟!

- أجل... (كذلك أجاب ضياء الدين وهو يقف على ساقيه ليواجه محدثه وجهًا لوجه) ذلك أنها لم تعتد على رؤية ضيوف عندي في مثل هذا الوقت، وخاصة أن يكون ذا ملامح غريبة عن هنا مثل التي لديك... (ولما كان يتحدث مشيرًا بأصبعه أضاف قائلًا): تمامًا مثل الفضول الذي انتابك حولهما.

ثم عاد إلى فراشه واختبأ داخله، بينما استدار عماد متوجه بكله نحو النجوم القليلة التي شارفت على الاختباء

خلف السحب التي تزحف نحو القرية معلنة بذلك سيطرتها التامة على جو السماء، واضعة عليها وشاحًا كبيرًا من الغيم الأسود، ومتسائلًا في نفسه، إلى أين قد تتجه تلك الأقدام الباردة وهي تركض تحت المطر في مثل هذا الوقت من الليل؟

-٨-

أصوات مزعجة كانت تتسرب من الخارج، وأشعة الشمس قد غمرت الغرفة وأضاءت كل ركن فيها، وأصوات الديكة المتأخرة أخذت تتصاعد في وتيرة واحدة وتدق طبلات أذنيه المرهفة، حتى دفعته لضرب الغطاء بعيدًا عن وجهه والاستواء جالسًا حيث أخذ يفرك عينيه بشدة.

ولما استفاق كفاية وأمكنه التحديق في وضوح، نقّل بصره في أرجاء الغرفة الصغيرة، وكانت آثار المسح على الأرضية المتوجهة نحو الباب قد حلت مكان بقع الدم التي كانت قد رسمت نفس الطريق في تلك الليلة، ولّما سحب عينيه نحو النافذة المشرقة كان سلّم البارحة يتحرك بعشوائية خلفها، وكأنه يحاول تثبيت نفسه في مكان ما فوقها.

فأسرع يحمل جسده على الوقوف متوجهًا نحو الخارج، فوجد أن الرجل يحاول تثبيت السلم على جدار الكوخ، فدنا منه وحيث كان لا يزال منهمكًا يفرك عينيه قال:

- ما... ما الذي تفعله، ألم نصلح السطح مساء البارحة؟!

فرد ضياء الدين قائلًا وهو يلقى أولى خطواته على السلم:

- نعم، ليس كما يجب، لقد تسربت بعض القطرات إلى الداخل، وقد قمت بمسحها من على الأرضية قبل قليل، والآن اغسل وجهك وتعال ساعدني!

فأسرع عماد يبلل وجهه من طست قريب، ثم وثب إلى السّلم حيث انتهى إلى السقف يراقب شروق الشمس بعدما اختفت سحب الليل، وابتسمت السماء في وجه الأرض معلنة عن صباح جميل، تلقفته كل الكائنات على اختلافها، بضحكاتها، وصيحاتها، ووشوشاتها، وزقزقاتها، إذ أنّ الطيور قد ملأت جو السماء معطية بذلك توكيدًا كبيرًا على طلعة اليوم البهية.

وكان دخان كثيف يتصاعد خلف الغابة، في نفس المكان الذي تصاعد منه مساء البارحة، لكن هذه المرة كان أكبر، ويتصاعد من أكثر من منطقة، ولم يعره اهتمامًا، إذ انحنى نحو السقف وأخذ يجهز بعض الألواح ليساعد ضياء الدين على دقها، وبينا هما كذلك إذ بصرخة استنجاد تصدر من خلفهما، من مقدمة الغابة، ولما استدارا ونقّلا أبصارهما على الطريق المتوغلة داخل الغابة، كان رجل قد برز منها، وأخذ يجر ساقه المريضة وهو يصرخ بصعوبة وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وإذ بضياء الدين قد فهم الأمر في لحظتها، فقد احتاج لأربع ثوانٍ، وهمَّ بوضع خطوته الأولى على الأرض نزولًا من السلم في رشاقة بالغة، وتبعه عماد في غير إدراك للمفاجئة التي جاء بها إليهما ذلك الرجل، سوى أن حركات ضياء الدين كانت في حد ذاتها أمرًا مباشرًا ليقوم عن مكانه ويلحق به في عُجالة.

تجمهر عدد من الأشخاص حول الرجل المنطرح على الأرض، وأخذوا يلتقطون منه تلك الأحرف المنطلقة مع أنفاسه الحارة، حتى إذا ما استطاعوا أن يكونوا منها جملة مفيدة، تعالت على وجوههم سيماء الذعر والانفعال والصدمة، وبينا هم كذلك مدهشون في كلام الرجل، كان عماد قد تلقف تلك الإشارات المنبعثة من وجوههم وقام بترجمتها إلى نفس الشيء الذي فهموه من الرجل وتسبب لهم في ذلك العبوس على وجوههم، وبينا تكفل ثلاثة منهم بالرجل حيث حملوه على أكتافهم وأخذوه بعيدًا لمداواته، كانت الانطلاقة قد بدأت لتوها نحو مدخل الغابة.

وكان الجمع يركضون في شراسة بالغة وهم يتوجهون نحو مصدر الدخان المتصاعد، وكان عماد قد مد ذراعه ليساعد صديقه السمين على مواكبة الجمع وتقليل المسافة بينهم قدر الإمكان.

«لقد تعرضوا لهجوم هذا الصباح، وقد، وقد قتلوا، الكثير منهم، أووووه...» كذلك أجاب ضياء الدين لاهثًا لمّا سأله عماد ليتحقق من مدى براعته في الفِراسة.

***

في الماضي طلب أحد الخلفاء من وزيره أن يكتب له جملة على خاتمه بحيث إذا كان سعيدًا وقرأها تحولت سعادته إلى حزن، وإذا كان حزينًا وقرأها تحول حزنه إلى سعادة، فغاب الوزيرة يفكر لفترة، ولما عاد أحضر معه الخاتم، وقد كتب عليه هذه الجملة: «هذا الوقت سيمضي»، هكذا وبهذه الجملة أضع نفسي ليلًا وكل ليلة، هناك حيث يتواجدون، فأضع نفسي وسط شوارع قرية ما وأجول فيها عاريًّا، جائعًا، باردًا وحافي القدمين، وأضع نفسي وسط أحد الحقول، فأعمل فيها بجد حتى ينضج محصولها، فيأتي أحدهم ويطوق رقبتي ويلويها ثم يحصد الزرع ويأخذه لنفسه، وأضع نفسي داخل إحدى الغابات وأنا أركض حافيًّا لا أدري من أين أهرب وممن أهرب وإلى أين أهرب، كل ما أعرفه هو أنه علي مواصلة الركض والهرب، قبل أن يمسك ذلك الشيء بي ويتسلى بجسدي، وأضع نفسي تحت مدية طويلة ترتفع عاليًّا ثم تهوي بفظاعة على ساقي فتقسمها، بحيث تسقط أشعة الشمس على جزئها الحاد فيعكسها على عيني تكون تهوي، فلا أرى شيئًا، ولا أدرك الأمر إلا عندما أسمع تكسر عظمة ساقي، لا أدرك الأمر إلا عندما تخبرني دمائي، وألمي وصراخي...

أو مكبلا تحت صخرة، وحثالة الرجال ترجمني وتكسر جمجمتي حتى أنّ صراخي يخذلني، وحتى أنني أضع نفسي موضع فتاة ملقاة في إحدى الزوايا المظلمة، في دمائي، فأرفع رأسي عاليًا، لكن شعري ينسدل على وجهي وعيني فيحجب عني الرؤية، فلا أكون قادرة إلا على رؤية ما يشبه، رجلًا يتقدم نحوي يحاول إنزال سرواله كي يفعل بي... ثم ما ألبث أحس ببرودة تلفح جسدي وحرقة شديدة في رقبتي، أضع عليها يدي وأتحسسها، وأنظر إليها فإذا هي حمراء تشع دمًا، وبعضه يشع على نصلته الحادة، وهو يغادرني، بعدما ذبحني، وألفظ أنفاسي، بعدما جردت من كل شيء، من بيتي، من أهلي، من وطني، ومن عفتي، ومن حقي في الحياة، وهكذا عندما يصل بي غضبي أقصاه وتدمع عيني، أحاول مداعبة نفسي وإرضاءها كطفلة صغيرة فأقول لها، أتدرين كيف مات الذين من قبلهم! وربنا يقول: «الفتنة» سينتهي كل هذا، سوف تنتهي كل آلامهم بمجرد أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة، حينها فقط ينتقلون إلى سعادة أبدية، وفي الجنة رتب متفاوتة، وأعلاها تلزمها أثمان أكبر من الأخرى، أثمان مثل التي يدفعونها، لذلك ستكون مكافآتكم كثيرة وكبيرة، الأسف علينا، فماذا لو أنّ حسناتنا قد سبقت لنا ها هنا في الدنيا قبل الآخرة، هكذا، ربنا يستطيع أن يخسف بأولئك القتلة في لحظة واحدة، ربنا يستطيع أن يقبض أرواحهم كلها في نفس اللحظة وفي أصغر جزء من الزمن يمكن تسميته، ويمنع هذا الظلم الحاصل،

لكنه يختبر الجميع، يختبرهم ويختبركم ويختبرنا، إن كانوا سيكفون أيديهم عنكم، وإن كنتم ستصبرون، وإن كنا سنؤدي واجبنا.

هكذا أرددها دومًا، هذا الوقت سيمضي، وعذابكم سيمضي بمجرد خروج أرواحكم، بأي طريقة كانت، سواء أكانت ضربًا أم ذبحًا أم حرقًا أم تعليقًا أم قطعًا، حينها تمر اللحظة وتنتهي تعاستكم، وتبدأ تعاستهم، وربما تعاستنا، فعذركم معكم ولا عذر لنا.

***

خرج الجمع من الجهة الأخرى، لكن عماد وضياء الدين كانا لا يزالان يركضان تحت ظلال الغابة، ولما خفف الجمع من سرعته عندما وصلوا إلى مبتغاهم، ولحق بهما الآخران تفرق الجمع كل في طريق خاصة به، واختار ضياء الدين أحد الأكواخ خاصة، ليس لأن الدخان كان يتصاعد منه أو لأنه كان الأقرب إليهما، بل لأنه كان يعرف صاحب ذلك الكوخ جيدًا ويعرف عائلته، والتفَّا حوله بسرعة حتى إذا ما وقفا على عتبة بابه، وقفا في جمود بالغ وذهول ليس بعده ذهول آخر، ذلك بأن العائلة كانت ممددة بكلها على الأرضية الرطبة، وكانت أشعة الشمس المنسدلة عبر النافذة قد تساقطت عليهم بحيث بينت تفاصيل كل واحد منهم، امرأتان وطفلان صغيران

-بنت وولد- كلهم مطروحون جنب بعضهم البعض، وكأنهم حبات سمك معدة للعرض خصيصًا، فكانت إحدى المرأتين مغطاة بالدم كليًّا من رأسها حتى أخمص قدميها، أما الأخرى فتسرب الدم من فمها، وكذلك البنت الصغيرة أيضًا، أما الولد فكان عاريًّا تمامًا، وعلى الأرجح أنه قد نال القسط الأكبر من التعذيب الذي حل بهم، ذلك بأنه قد تم التنكيل بجثته جيدًا، حيث جرحت ركبتاه بوحشية بالغة، وكذلك صدره مملوءًا بالخدوش المتفرقة، وكان رأسه قد ضرب ضربات كثيرة بحيث ترسمت كدمات زرقاء كثيرة على وجهه، وعينه منتفخة، وكان وضعهم بتلك الطريقة قد ساعدهم على تكوين حصيرة كبيرة من الدم بحيث استطاعت كل العائلة تقاسمها والنوم عليها.

أمسك ضياء الدين قلبه وانحنى نحو ركبتيه وأخذ يغمغم بكلمات بينه وبين نفسه، ذلك بأن دماء باردة قد تسربت إلى أوصاله أثناء وقوع نظراته عليهم، ولم يكن عماد أفضل حالًا منه إذ انه قاوم بشراسة حتى يمنع نفسه من السقوط على الأرض، لأن فظاعة المشهد كفيلة بفعل أكثر من ذلك بكثير، لكن ضياء الدين وكونه صديق العائلة التي فقدت معيلها منذ أشهر قليلة وها هي الآن تنضم إليه على نفس الصورة، فقد جمع شتات نفسه وأخذ يبحث في إحدى الغرف المجاورة حتى حصل على دثار كبير جاء به وغطى العائلة.

وبينا هما واقفان كذلك يترحمان على الجثث الملقاة أسفل أقدامهما، كان صوت أحدهم قد تسلق عنان السماء في شكل صرخة مبحوحة كبيرة، فأسرع الجميع نحوه في الخارج وكذلك فعل ضياء الدين وعماد اللذان كانت دقات قلبيهما قد تسارعت إلى الحد الذي لا يمكن أن تتسارع بعده، بحيث بات قلباهما يصدران أصواتًا مسموعة، وحينما يعود القلب غير قادر على التسارع أكثر فإنه ما يلبث يعود إلى وضعه الطبيعي مهما تتالت عليه مثل تلك المشاهد.

هدأت القلوب حول بئر خفيض يتوسط الأكواخ كلها، وامرأة جاثية على ركبتيها وهي تصرخ وتنادي نداء الثكلى اللذين لا عزاء لهم، أما دموعها فلغزارتها فقد وجدت لنفسها طريقًا على التراب، وأخذت تنساب داخل البئر قطرة قطرة، فترفع رأسها تارة تُنقل عيناها بين الواقفين على رأسها وتترجاهم لفعل شيء ما، ثم تخفضه لتجهش بالبكاء تارة أخرى، كيف لا وهي ترى والدتها العجوز وابنها الرضيع يطوفان على سطح الماء في هدوء وسكينة موتى، كانت العجوز ترتدي الأحمر بكلها، ليس دمًا، وإنما هو لون القماش الذي يغطيها، فهي قد ماتت غرقًا في البئر منذ مدة، أما الرضيع فيرتدي قميصًا أزرق جميلًا يحمل وجهًا كرتونيًّا ضاحكًا على ظهره، وهما ينامان بجوار بعضهما كجدة وحفيدها، كزورقان انقلبا على بطنيهما، وكأنها تحكي له حكايا الشتاء تحت الماء حتى لا يسمعهما أحد ويسرق الحكايا، وإن كانا كذلك فلماذا لا تتصاعد فقاعات

الهواء نحو الأعلى لتنفجر بعدها، لكن لا، شيء ما يخبرني بأنهما ميتان منذ مدة، لكن ما الذي جاء بهما إلى هنا، وكيف أخطآ ذلك الخطأ وسقطا في البئر؟

كيف تم جر العجوز بالقوة وهي تصرخ بصوتها المبحوح تطلب الرحمة، ومؤكد أنها لم تطلبها لنفسها قبل أن تطلبها لحفيدها؟ وكيف ظلت تترجاهم طوال تلك المسافة التي تم جرها فيها من عتبة باب كوخها حتى فوهة البئر العريضة؟ وكيف تم ركلها؟ وكيف جيء بحفيدها وهو معلق من أحد رجليه يطوف في الهواء ضاحكًا متبسمًا ظنًا منه أن ذلك يشبه ما تفعله به والدته عندما تلاعبه عادة؟ وهي التي كانت مقيدة حينها في إحدى الزوايا ويتم اغتصابها، ويلقى الرضيع داخل البئر مع ضحكة صغيرة متفشية.

واختفى صوت المرأة بعدما تعب قلبها وتثاقلت حنجرتها المبحوحة وضاق صدرها، وندبت حظها الذي جعلها تنجو لتعيش هذه اللحظة، وهنا تقدم بعض الرجال وأخرجوا جثتيهما الزرقاوين، وصَفّوهما إلى جانب بعضهما.

في لحظة أخرى لاحظ عماد أنّ الجميع قد بدأوا بالتحرك في اتجاه آخر، فنظر إلى ضياء الدين الذي كان قد أعطاه إشارة سريعة بأن يتبعه، ولمّا حاول التقاط أنفاسه خلفه عندما لحق بهم وقد تجمعوا حول شيء ما قد أثار اهتمامهم بشدة، شيء مركون أمام أحد الأكواخ المشتعلة، فراح يحشر

جسمه بينهم، ويدفع به حتى تناهى إلى بصره ذلك الشيء الذي جمعهم وتجمعوا حوله بهذه الصورة، وليته لم يفعل، فكانت الهمهمات المتصاعدة تعطي مزيدًا من التوكيد على ذلك الأثر الذي قد يخلفه المنظر في النفس البشرية، فانحنى فجأة، وأخذ يسعل بشدة ثم وضع يده على فمه وأخذ يدفع بالأخرى حتى تسرب من بينهم، وابتعد كفاية وأخذ يخرج كل ما في بطنه المضطربة، وعيناه تنضغطان من شدة القيء وهما تهتزان بشدة وكأنهما على وشك الانفلات من محجريهما.

وعندما استعاد أنفاسه التي كادت تتلاشى، كان رأسه لم يزل مضطربًا بشدة لهول ما رآه، أما الآخرون فلم يبدُ عليهم كل ذلك التأثير الجانبي للمشهد، فقد اعتادوا كثيرًا على مشاهدة مثل تلك المناظر اليومية، أمّا هو فلم يبدأ برؤيتها إلا منذ يومين اثنين لا ثالث لهما، ولا زال يمسك برأسه والأرض تدور من حوله، وكأنه أخذ قضمة من جسد جيفة نتنة، ولم يستطع ابتلاعها، فأخذت تلعب على عقله ورائحتها تملأ منخريه، وتأخذ به في كل اتجاه في غير ما قدرة منه على تجاوز ذلك بسهولة، فراح يمشي متمايلًا حتى اصطدم بجدار أحد الأكواخ فاستند عليه ومال على الأرض وأسقط رأسه بين ركبتيه وانزوى على نفسه.

- عماد! عماد! هل أنت بخير؟

رفع رأسه نحو الأعلى فبرزت عيناه الحمراوان بشكل مخيف والدموع تملؤهما، حاول تحريك شفتيه ليقول شيئًا ما، تحركتا، لكن لم يصدر منهما أي صوت، اهتزتا بقوة وهما ترتجفان على بعضهما، فرفع يده وأخفاهما تحتها، كي لا يُصدر صوت بكاء أمامهم.

هكذا ببساطة لم يستطع عماد تقبل تلك المشاهد التي رآها قبل قليل، أن ترى ساق شقيقك الصغير الذي لم يتجاوز السادسة بعد، ورأس والدك وهو يبتسم وينظر نحوك مباشرة، وقد ألقي بهما فوق ذراع والدتك المبتور في شكل كومة من الدم واللحم البشري، وباقي الأطراف من خصر وجذع وأياد وسيقان وأرجل ملقاة غير بعيد عن كل هذا، في منظر يخزق القلب ويحشر العقل في زاوية مظلمة بين ثلاثة جدران ضيقة، حيث يتوقف عن العمل تمامًا، فلا يعود قادرًا على التفكير في أي شيء سوى الدم، والدم، والدم، وقطع اللحم، والأوتار البيضاء الظاهرة، والأضلع المبتورة، وفوهات الحناجر البيضاء، في الأسنان الضاحكة والعيون البيضاء الشاخصة، بحيث تصل إلى مرحلة من الغلبان والأسى تشعر فيها بأنك الوحيد في هذا العالم العارف بقوانين الفيزياء، بأن كرة الثلج لا تتوقف من تلقاء نفسها على المنحدر، بأنها لا تتوقف قبل أن تعترض طريقها صخرة أو شجرة، وبأنها ستواصل الانحدار نحو الأسفل فيما يكبر حجمها، يكبر، ويكبر، ويكبر حتى لا يمكنك الهرب منها.

وتشعر بأنك الوحيد العارف بقوانين الرياضيات، وأنك الوحيد الذي يُقدر المسافة الفاصلة بين الرقم ٩٨ والرقم ٩٩، أو بين الرقم ١ والرقم ٢، وأنه لن يوقفها شيء عن بلوغ المليون ما لم تضرب في الصفر وتعود أدراجها.

تشعر بأنك الوحيد الذي يعلم ما الذي يمكن أن يفعله الجانب الروحي مع الجانب العملي لو اجتمعا، وأن اللهم زلزل... واللهم اقتل... واللهم ادفع... واللهم انصر... لا تفعل وحدها.

وأن الطائرات المعدنية المتراقصة فوق السحب جيئة وذهابًا لا تسقطها الطائرات الورقية الملطخة بالخبر والمصنوعة خلف المكاتب وداخل المؤتمرات.

منذ القدم ومع مرور الزمن أثبت أمثال هؤلاء أنهم جد متفوقين على الحيوانات بمراحل عديدة يفتخر بها، في كل شيء، وحتى في وحشيتهم، في طريقة قتلهم لبني جنسهم، الحيوانات تقتل بعضها لأجل التغذي، لأكل بعضها، مهما اختلفت طرق القتل عندها، من لوي رقبة أو لسعة أو خنق حنجرة أو تهشيم رأس، لكنها لا تفعل ذلك إلا لأنه السبيل الوحيد لبقائها على قيد الحياد، مثلما تقتل الغزالة النبتة، ومثلما يقتل النمر الغزالة، لكنهم لا يقتلون بدافع من الضغينة المطلقة المجردة، الحقد والخوف من أن يتم محو جهالتك وتوجيهك إلى الطريق الصحيح وإثبات أنك على خطأ.

أن تقتل بطريقة قد تنزعج منها الحيوانات نفسها ولأجل معتقداتك الخاصة، وحتى إذا كانت خاطئة، فهنا إني أهنئك بجدارة، لأنك أثبت تفوقك على الحيوان حتى في أدنى وأفظع صفاته، وكل ما بات ينقصك هو أن تصدر أصواتهم، لأنه ولا مجال للشك في أنك تتكاثر مثلها...

- عماد، انظر!

- ماذا؟

كذلك قال عماد وهو يأخذ بعينيه المبتلتين نحو يمينه، حيث وقعتا على فتاة صغيرة مختفية تحت فستانها الأبيض المتسخ وخصلات شعرها المتشابكة، فأخذت تدنو منه بخطواتها الصغيرة الحافية حتى أمكنه رؤية حلقات عينيها الكبيرتين وهما تتلألآن بجنون، وبينما جمد في مكانه يحدق فيها حائرًا بين أن يمسح دموعه أو أن يمسح دموعها، تحركت شفتاها اليابستان فجأة وأطلقتا ما يشبه البابا، بابا، ثم رفعت يدها المتسخة وطوقت بها سبّابته وأخذت تجره منها، ونظر إلى الآخرين الذين كانوا منهمكين في تغليف الجثث والأطراف وترتيبها، فقام عن مكانه وراح يتبعها بخطوات مترنحة معكوف الظهر حتى يساير ارتفاعها الخفيض وخطواتها الصغيرة، وكان عقله قد لجأ تلقائيًّا إلى محاولة توقع ما الذي قد تخبئه له هذه الجولة الصغيرة، وبينا هو كذلك حائر في فكره، كانت الفتاة قد قادته خلف أحد الأكواخ ثم خلف آخر ثم

قطعت به طريقًا ضيقًا بين الحقول الملتصقة بظهور الأكواخ، ثم نزلت به إلى خندق صغير يفصل بين مجموعة الحقول المتراصة، وهناك وقف الاثنان حيث توقفت الرحلة، وعادت تحرك شفتيها بعدما أسقط عماد يدها، وترك يده تترنح في الهواء لوحدها، وذلك لأن قلبه وفكره وعينيه قبل ذلك قد شخصوا نحو جثة رجل كانت راقدة وسط الحشائش مشوهة ومبتورة الرأس تقريبًا، فأخذ يغمض عينيه تارة يسترجع ما الذي يمكن أن يكون قد تعرض له هذا الرجل قبل مدة قصيرة، هذا الرجل الأب الذي كان يضج بالحياة وكل الحياة قبل الصباح، ثم يعود تارة أخرى فيسقط بصره على موضع القطع في الرقبة، على فوهة حنجرة الرجل البيضاء وخضاب الدم الممتزج وسط كل تلك التداخلات الحنجرية، وعندما أظلمت عيناه مرة أخرى، وانخفض صوت بكاء الصغيرة في أذنه، عاد به الزمن إلى أحد الأعياد الجميلة.

في فناء المنزل كان الخروف السمين «كفتة» كما ارتأت الصغيرة مريم أن تسميه، يدور ويجول في مكانه وحول نفسه، وكان صوته المبحوح يملأ الجو صخبًا، يرسل قطرات السعادة في الأجواء لتسقط على الأطفال والجيران، وصباح اليوم التالي، كان الخروف ممددًا على جنبه وقد قيدت أطرافه بالحبال، وكانت مريم الصغيرة تنظر إليه بحزن وشفقة ودموعها متشبثة بأهداب عيناها الجميلتين بصعوبة، فحملت سكينًا كبيرًا من على الطاولة، ومشت به حتى جلست عند

الخروف، وهي تحمله بكلى يديها الصغيرتين، وأخذت تكلمه بعفوية كبيرة:

«يا كفتة! لماذا لا تصدقني، بابا سوف يقتلك، عليك أن تهرب من هنا، انظر! (وهي تشير بسكينها وشفتاها ترتعشان حزنًا ورأفة) بهذا السكين سوف يذبحك عندما يعود».

ووضعت أصبعها الصغير على حنجرة كفتة لتريه المكان الذي سوف يتأذى فيه قبل أن تجد نفسها تطير في الهواء بين أحضان والدها، وعندما أنزلها وأعطاها قبلتين قال لها:

«حبيبتي، أنتِ تخيفين سيد كفتة هكذا، فلا يصح أن نجعله يرى السكين بهذه الطريقة، لأن ذلك سوف يؤذي مشاعره ويخيفه، أترين كم أنّ ديننا جميل جدًّا، إنه يراعي حتى مشاعر الحيوانات أيضًا!»

وهكذا يفعل بنا أضعاف ما نخشاه على سيد «كفتة»، وهكذا تم اجتزاز رقبة الأب في حضور طفلته وفي وحشية كبيرة لا نظير لها.

ماما، شيء يشبه الماما بدأ يصدر من تلكما الشفتين المتشققتين اليابستين إلا من بلل الدموع، وعندما أطبقت الصغيرة بيدها على سبابة عماد مرة ثانية، وراحت تأخذ به مرة أخرى نحو مكان ما قريب منهما، كان هو يتبعها كجثة متحركة، كزومبي، حي ميت تبلدت مشاعره، واختزلت في

شكل عبرات حارة تساقطت على الحشيش والتراب والأحمر، ووقفًا عند الماما.

أمضى عماد الساعة التالية كالشبح الهائم وسط القبور يحاول مساعدة أهالي القرية على دفن أقربائهم في جو مهيب من الحزن والنحيب، ومواساة بعضهم على ما أصابهم، بعد الانتهاء من دفن الجنازات ابتعد بعضهم عن أكوام التراب المرتفعة، فيما آثر آخرون مواصلة النحيب والبكاء عندها، أما عماد فحمل اليتيمة الصغيرة التي نامت على صدره من فرط البكاء وهم بها عائدًا إلى القرية، وفي الطريق سأل رفيقه قائلًا:

- لكن لماذا اعتدوا عليهم هذه المرة!

وكان واضحًا أن رفيقه قد أرسل فكره بعيدًا، فيما احتفظ بجسده هنا وهو يمشي بهدوء شديد وصمت حزين، وإذ رفع رأسه على غفلة قال:

- ككل مرة، لقد اتهموهم بأن بعض المجاهدين قد مروا عليهم في الليل، وأنهم قاموا بتخبئتهم وإطعامهم.

متظاهرًا بأنه قد تفاجأ بالأمر قال عماد:

- مجاهدين!

- أجل... (كذلك أجاب ضياء الدين وقد ران شحوب لطيف على وجهه) قلت مجاهدين، في كل مرة تثور غريزة القتل لديهم وتحمى دماؤهم، يحملون شفراتهم وعصيهم ويتوجهون بها نحونا فيخوضون فينا ضربًا وتقطيعًا حتى تبرد دماؤهم في مجاريها، وعندما يستفسر أحدنا عن الأمر يصفعونه بهذه الأسباب، ثم يعودون من حيث جاءوا حتى تسخن دماؤهم وتغلي مجددًا.

فقال عماد:

- إنكم هكذا تعيشون بين المطرقة والسندان!

فابتسم ضياء الدين بمرارة، وقال بعدها:

- أجل، بين قسوة الطبيعة وقسوة البشر... (وإذ صمت قليلًا، تابع بعدها رافعًا رأسه نحو السماء) إلا أنّ الجميع هنا يؤمنون بأن الله لن يخلفنا وعده، وذلك أنّ الحداد سيمرض يومًا ما ليسقط طريح الفراش، وتهدأ مطرقته عن ضرب رؤوسنا، لو كانت الآخرة تعاش توازيًا بما يعاش في الدنيا، لكان الأسف علينا، لكن الأسف الحقيقي على المطرقة ومن يضرب بها، وعلى من يطعم الحداد حليبًا وتمرًا كل صباح ليقوى على النهوض باكرًا والتوجه نحو دكانه.

وهنا تعكرت ملامح عماد وارتسمت عليها ضروب من القلق والإحراج لما جعلت تلك الكلمات تنبش في قلبه من حقيقة مرة، يعايشها ويراها كل لحظة، من عار غباري تبثه عواصف الانتكاسة والخذلان التي تصول وتجول في بعض أوطانه ومنذ عقود من الزمن طويلة، فخفض ناظريه قليلًا وأخذ يعدل على خصلات من شعر الأميرة الصغيرة النائمة التي كانت تحكم قبضتها الضعيفة على قميصه وتهذي ببعض الأحرف المتطايرة...

***

خرج الجميع من ظلال الغابة إلى شعاع القرية الباردة واتجه كل إلى مخدعه، وتوجه صاحبانا إلى كوخهما الصغير، فوضع عماد الفتاة الصغيرة تحت غطاء دافئ وتركها تغط في نوم عميق، ثم ابتعد قليلًا وأخذ يراقبها في شرود.

وكان ضياء الدين قد وقف عند الطاولة الكبيرة وشرع يفرغ شيئًا ليشربه حيث قال:

- لم يبقَ الكثير لوصوله، أليس كذلك!

- بلى... (كذلك أجاب عماد مبتعدًا عن مكانه ومتوجهًا نحوه ليحصل على كأس بدوره أيضًا ويروي به عطشه، وقال وهو يرفع الكأس عاليًّا يتفقده) قد يصل في أي وقت... (ثم شرع يفرغ محتواه إلى حنجرته).

فقال ضياء الدين:

- ولماذا أنت متوتر هكذا؟

- لا، لا شيء!

فأشار ضياء الدين بكأسه نحو الملاك النائمة قائلًا:

- ألأجلها!

- ربما... (كذلك قال عماد وهو يميل بكله على الطاولة) لقد رسمت في قلبي شيئًا أعلم أنه لن يزول بسهولة، لو أنك رأيتها وهي تنادي أمها المنطرحة وسط الحشائش على حصير من دمائها!

تأفف ضياء الدين وألقى ما بيده على الطاولة، ثم توجه نحو الفتاة وجلس يعدل غطاءها ويمسح بيده الثقيلة على رأسها، وهو يقول:

- لا تقلق بشأنها، سأهتم بها من الآن فصاعدًا، ستكون بمثابة ابنتي، أما بالنسبة لما عايشته هناك، فأنت تعلم أن ذاكرتها لا تزال قصيرة على تذكر مثل هذا.

تحرك عماد نحو النافذة وهو يزفر زفرة عظيمة حتى مال عليها، وأطلق بصره نحو الخارج:

«ما أهدأ الحياة هنا، وما أخوفها! يتعايشون ويتكاثرون ويموتون في صمت، همهم الوحيد خلال السنوات التي يقضونها على هذا الكوكب هو ملاعبة أراضيهم، علها تجود عليهم بما يسد رمقهم، وعبادة ربهم علّه يرضى عنهم، ويلقي لهم القبول في الآخرة، وبين هذا وذاك، يجلسون ويتسامرون حول النار عن آخر قبر حفروه، عن آخر قطعة أرض سلبت منهم، عن آخر مسجد هدم، وعن آخر قرية أحرقت، ثم ينامون فيستيقظون فيعيدون الكرة، فيتناقصون...»

-٩-

كانت الشمس قد قاربت عنان السماء الفارغة عندما وصل الزائر أخيرًا، وكانت الطيور تملأ السماء ضجيجًا بحركاتها وتموجاتها في شكل أسراب وزقزقاتها المتكررة، أما عماد فقد أخذ لنفسه مكانًا في المقعد المحاذي لمقعد السائق داخل سيارة الجيب المكشوفة بعدما ألقى حقيبته على المقاعد الخلفية، وجلس ينتظر السائق حتى أنهى حديثه مع ضياء الدين، وما لبث السائق أن عاد وركب سيارته وتبعه ضياء الدين أيضًا، حيث مال بثقله على الباب وراح يغمغم نحو إياد قائلًا بنبرة الكبير الناصح: «إنّ هذا السائق رجل شهم وذو ثقة، وقد أرسله (ماو لونغ) لهذا السبب، غير أنه -وللأسف- لا يتقن شيئًا من العربية كما ترى، لذلك لا تتعب نفسك في محاولة طرح أي سؤال عليه»، ولما كان عماد يُومئ برأسه أن نعم، أردف محدثه قائلًا: «ثم إنّ جميع العساكر قد تعرفوا عليه أثناء قدومه إلى هنا، ولن تحدث لكم أي مشكلة مع نقاط التفتيش الموزعة على الطريق، إلا إذا صادفتم دورية ما، حينها فقط وإن رابهم أمركم فقد تتعرضون للتفتيش والمسائلة، لذا كن حذرًا».

ولما نطق بهذه الكلمات وأنهى توصياته، أغدق عليه عماد بما استطاع من عبارات شكر عظيمة وابتسامات أصلية بالغة في الصدق والامتنان للرجل الشهم الكريم.

وهنا انطلقت السيارة بعدما زفرت زفرة عظيمة مخلفة وراءها سحابة صغيرة من الدخان الأسود وخطين متوازيين على التراب أخذا يكبران ويطولان شيئًا فشيئًا كلما ابتعدت عن الرجل والكوخ الصغير وعن القرية، حتى اختفت تحت ظلال الغابة الباردة.

***

مع كل مسطح عبروه، أو مرتفع صعدوه، أو منحدر نزلوه، أو جبل التفوا حوله، كان عماد يطلق ما استطاع من كلمات الشكر والحمد لله تعالى، ذلك أنهما لم يلتقيا بأي من تلك المناظر الدامية على الطريق، والتي عكف على مشاهدتها منذ أن وطأت قدماه على هذه الأرض، لكن أفكاره سرعان ما تعانده لتبث في نفسه قلقًا غريبًا يجعل أطرافه ترتعش ويجفل في لحظة ما، وأكثر ما أقلقه هو أنّ حدسه عادة ما يكون صادقًا.

وبينا هو منهمك في محاولة إرضاء معدته المضطربة من خلال دعسها بأصابعه وعجنها بشدة، وذلك أنه لم يكن قد

اعتاد على التواءات الطرق واهتراءاتها التي جعلت السيارة تهتز طوال الطريق ودون توقف حتى تحركت أحشاؤه ولامست بعضها مسببة له بذلك اضطرابًا مزعجًا جدًّا، وبينا هو كذلك إذ به يستشعر السيارة وهي تخفف من سرعتها شيئًا فشيئًا حتى توقفت تمامًا عن الحركة، ولما رفع رأسه لأعلى كان مجموعة من الجنود وسيارتان عسكريتان قد اعترضوا طريقهم، مع رزم من الأكياس المملوءة بالتراب فوق بعضها بحيث يحتمون خلفها، وكان الجنود مسلحين يحملون إشارات حمراء على رقابهم، وقبعاتهم معكوفة بحيث تعطيهم شيئًا من الهيبة التي لم يكونوا في حاجة إليها، وكانت عيونهم تطل من تحتها في غمزات متبادلة، وأفواه صامتة أو حتى صارمة، وكأن عليها مسحة من مارد حزين غاضب.

وبينا هم كذلك يتبادلون النظرات من كلا الطرفين، تقدم أحد الجنود معانقًا سلاحه إلى صدره حتى وقف على رأس السائق وراح يلقي عليه بعض الأسئلة، أما عماد فآثر أن يتوجه بعينيه نحو الأراضي البعيدة تارة، ونحو الجبال القريبة تارة أخرى، محاولًا بذلك إخفاء توتره بعيدًا بدل مواجهة تلك العيون المفترسة التي تحدق فيه بغرابة، بعد لحظات قصيرة طويلة ابتعد الجندي جانبًا، وأشار بيده نحو زملائه فابتعدوا عن الطريق فاسحين بذلك المجال لعبور السيارة، وإذ تلقى السائق تلك الإشارة أيضًا فقد راح يضغط على دواسة البنزين حتى تحركت السيارة تاركة مكانها، وتنفس عماد

الصعداء بمجرد أن تركوا نقطة التفتيش خلفهم، وأطبق يديه على وجهه كي يفرغ ذلك الخوف الشديد الذي تملكه أثناء تلك الوقفة.

بعد مرور دقائق على مفارقة تلك الوجوه وخروجهم من بين الأحراش والمعتركات الغابية المتداخلة، ها هي ذي تستقبلهم سهول واسعة من الأراضي الخضراء الملأى بالمحصولات الزراعية التي تملأ مناظرها العين براحة غريبة تنسي غريق أفكاره كل تلك المشاهد المروعة والصور الدامية الحمراء، وكأنها تلقي به في عالم آخر بعيدًا عن الذي تركوه خلف ظهورهم.

وكانت السيارة تسرع بحماسة لما استوت الطريق وتجملت بتلك المربعات الخضراء الواسعة التي تحتضنها من كلا الجانبين، وكانت مجموعة من الأجسام المتحركة داخل الحقول القريبة إلى الطريق قد انكبت على عملها في كثير من التركيز والإصرار المغالى فيه، وكادت السيارة المتوقفة بجانب الطريق أن تشي بأمرهم من تلك المسافة البعيدة، لكن عماد لم يتمكن من التعرف عليهم إلا بعد أن أصبحت تفصل بين السيارتين أمتار قليلة، عكس السائق الذي رمى إليهم بابتسامة صفراء من بعيد على مضض، فبادله أحدهم برفع قبعته متصنعًا التحية بسذاجة بالغة، فيما ظل الآخران منهمكين في تكسير عيدان الذرة وتهشيمها وأسلحتهما لا تزال تركب ظهريهما، وكأنما هي أجزاء من جسديهما لا تبارحهم أبدًا.

وانقضى جزء آخر من الطريق وأراضيه البرشاء وانقضت معه مخاوفه، وبرزت أمامهم حزم من الأشجار المتعانقة التي تعترض تلك المسطحات الخضراء وتنهيها، وكانت الطريق تتجه نحوها مباشرة، فكأنما الغابة والطريق هما عجوز طاعن يفرك شاربيه محاولًا سحب خيط معكرونة نحو أمعائه الجائعة، ذلك أن الغربان في السماء كانت تصدر نعقاتها الملطفة للجو بطريقتها الخاصة، لكن الغابة استقبلتهما بحفاوة شديدة، بظل بارد ووشوشات الأرانب وزقزقات الطيور العابثة، وكأنما تحاول مخاطبتهما وإخبارهما أو تحذيرهما من شيء ما، ومع توغلهما أكثر في عمقها فقد أهدتهما ما كانا يخشيانه حقًّا ذلك أنه لما دنيا من أحد المنعطفات المريبة أصلًا، كانت دورية عساكر تزحف نحوهما هي الأخرى في هدوء وتثاقل مخيفين.

فنظر الاثنان إلى بعضهما بجمود، فارتدت نظراتهما في الهواء كأنما هي قطبا مغناطيس لتشابههما، ففهم كل واحد منهما أن عليه أخذ نفس عميق وإطلاق زفرة عظيمة والتصرف بهدوء قدر المستطاع بعدها.

اقتربت أول شاحنة منهما وبدأت ترميهما بحزم ضوء متقطعة وهي تخفف من سرعتها حتى توقفت تمامًا، وتبعتها بقية المركبات من خلفها.

ولما شرعت أبواب الشاحنة عن يمين وشمال، نزل منها جنديان يحملان أسلحة من نوع (AK47) وراحا يتقدمان نحوهما في كثير من الصرامة، فيما بدأ التوتر يسيطر على عماد مع كل خطوة يخطوانها، وأخذت دقات قلبه تزيد من وتيرة ضرباتها تدريجيًّا، عكس صاحبه الذي بدا عليه أنه غير آبه لأمرهما أبدًا.

ولما استقر الجنديان بجنب السائق وأخذ أحدهما يطرح عليه بعض الأسئلة وملوحًا خلال ذلك بيده في الهواء في انفعال كبير، وناظرًا إلى عماد بين الفينة والأخرى، كان عماد قد لاحظ أن ملامح السائق تغيرت فجأة، وأن تلك إشارة ليس جيدة لمستقبلهما قصير المدى، استمر الجندي الغاضب في الصراخ على السائق إلى أن طلب منهما الترجل عن السيارة ثم مد ذراعيهما على غطائها الأمامي ريثما ينهي الآخر تفتيشها.

وبينا كانت عينا عماد شاخصتين في الجندي وتحدجانه بشراسة، كان الأخير يفرغ حقيبة من كل الأشياء التي فيها، حتى إذا فرغت رمى بها جانبًا، وأكمل عبثه في السيارة، وبينا هم هكذا إذ بصوت عنيف يخطف ذلك الصمت عنهم، وكان ذلك الصوت نتيجة لضرب باب إحدى المركبات في الخلف حيث أعيدت إلى مكانها في كثير من الغضب والانفعال كما اتضح من صوت ارتطامها بهيكل السيارة.

كانت الأقدام القادمة من الوراء تسقط خطوات مسموعة منتظمة بشكل غريب، حتى أنها تُوحي بأن القادم هو شخص أكثر أهمية من اللذين نزلا أول مرة، واستمر وقع الأقدام في الاقتراب أكثر وأكثر حتى توقفت وراءهما مباشرة، فران صمت مخيف على المكان بعدما أنهى الجندي الذي كان واقفًا لوحده خلفهما ضرب رجله على الأرض مستعملًا في ذلك كثيرًا من الجهد والقوة، وذلك ما أطلق توكيدًا قويًّا على صفة الرجل الذي انضم إليهم.

***

أنهى العسكري الآخر عبثه بالسيارة ثم تراجع مسرعًا وضرب رجله بالأرض، ورفع يدًا نحو رأسه مغمغمًا ببعض الكلمات، قبل أن يصرخ فيه صاحب الخطوات الغريبة بصوت عالٍ فأسرع الجندي إلى السائق المنطرح على غطاء السيارة، وأخذ يفتشه ويتلمس جسده نزولًا من الأعلى إلى الأسفل، ثم انتقل إلى عاد ليفعل به نفس الشيء، وكان عماد قد تمكن من جمع شتات نفسه والتحكم في أطرافه حتى بدا أكثر هدوءًا ووطنية من السائق نفسه، ولما كان الجندي ينزل بيديه باحثًا عن أيما شيء أو جسم ذي صلابة، فقد عثر على واحد منهما في أحد جيوب بنطاله، فأخرجه بسرعة ونظر إليه نظرة فاحصة، حتى إذا ما انتهى منه ذلك ألقى به على غطاء

السيارة، وواصل نزوله نحو الأسفل حتى انتهى للاشيء، فعاد يضرب الأرض ملقية بذلك تحية خالصة إلى سيده.

ومرت لحظات صمت بالغة حيث سكت الجميع حتى طغا صوت الخشخشات من جنبات الطريق على كل صوت آخر، وإذ بصاحب المكانة بينهم يتحرك فجأة مقتربًا من عماد حتى أمسى خلفه مباشرة، وهناك وبينما كانت عينا عماد تهتزان في اضطراب شديد فقد سكنتا في محجريهما فجأة عندما برزت من خلفه يد سوداء مخيفة تمتطيها ساعة ذو حلقة زرقاء جميلة التقطت الهاتف من على الغطاء ثم عادت واختفت من حيث ظهرت أول مرة، وهنا سرت رعشة غريبة في جسد عماد، وأحس بأن قطرات عرق باردة تحاول الالتقاء على جبينه، ولما كان قد ابتلع ريقه، حدثت تلك الصرخة التي كان متيقنًا أن لا مفر من حدوثها، فقام الاثنان عن الغطاء واستدارا بكلهما نحو موطن الصرخة حيث ألفيا نفسيهما أمام جسد عظيم بالغ في الطول والعرض، ورأس كبير ذي عينين غائرتين فيه، تعتليه قبعة مائلة هي تختلف كل الاختلاف عن القبعات الأخرى، ولم يكن الرجل يحمل أيما قطعة قتل كبيرة على صدره، فقد آثر لنفسه أن يحتفظ لها بمسدس صغير مختبئ داخل جيب جلدي على خصره المتدلي، وكان حذاؤه الأسود ذو الارتفاع الطويل يفسر تمامًا مصدر تلك الخطوات البطيئة المتثاقلة، وكذلك كانت النجمة المخاطة على كتفه تخبر كثيرًا

بأن الرجل ذو رتبة مهمة، وأنه قد يسبب لهما مشكلة، فأوجسا في نفسيهما خيفة حقيقية هذه المرة.

وبعدما يأس الرجل من محاولاته اليائسة للولوج إلى الهاتف واكتشاف ما بداخله، فقد رفع رأسه وأرسل نظرات حارقة نحو عماد الذي حسم الأمر في نفسه حينها، وأكد لها مرارًا وتكرارًا أنه ما من مفر من الوقوع فيما يدور برأسه، وكان حدسه صادقا جدًّا، ذلك أن الرجل مد ذراعه نحوه، وأخذ يصرخ في وجهه مغمغمًا بتلك الكلمات المبهمة إبهامًا تامًا بالنسبة على الرجل المرتعب، لكن عماد ولجهله بلغة القوم أو بتظاهر منه بأنه لم يستطع فهم إشارة الرجل، فقد اكتفى بتحريك رأسه محدثًا ذلك إيماءة صغيرة تنم عن لا شيء البتة آملًا بذلك أن تحدث أيما معجزة قد يكون مقدرًا له أن تحدث فيتركه الرجل وشأنه، وإذ به يكتشف أن الرجل أذكى بكثير مما كان يتوقع منه، حيث أنه أدار الهاتف على وجهه بحيث برزت تلك التفاحة المميزة بقضمتها الجانبية، فأخذ بيد عماد وأسقط سبابته على دائرة صغيرة مقعرة غير قابعة ببعيد عن الجزء العلوي من موضع التفاحة، أما عماد فكان يسلم يده في برود، وقد تسراعت نبضات قلبه بشدة مشكلة بذلك تصفيقة حارة على ذكاء الرجل وإصراره، فرفع الرجل الهاتف إلى وجهه، وأخذ يقلب تلك الصور المعنونة جدًّا، إلى الجثث وقطع اللحم البشرية، والوجوه العابسة، وكل ذلك، وعندما بدأ في استعمال عضلات وجهه الثلاث والأربعين ليرسم بها وجه وحش بشري

على مقدمة رأسه، فقد بدا وكأن لون وجهه يزداد عتمة شيئًا فشيئًا، ويزداد ظلمة كلما قلب صورة أخرى، وبالتوازي كان وجه عماد يزداد شحوبًا وبياضًا، وكأن الدماء أخذت تهرب نحو الأسفل قطرة قطرة، وظل على حاله يصارع خيالاته القاسية، وفي لحظة من الزمن قصيرة، وإذ بالرجل يرفع قبضته عاليًّا ثم يهوي بها على وجه المسكين الخائف الذي جرى عن مكانه بخطوة ونصف خطوة قبل أن يغلبه الميل وتخونه قدراته على التحكم في عضلات جسده ليسقط على الأرض ويتمرغ وجهه في التراب.

من تلك الزاوية أخذ الصحفي الطريح يتفحص تلك الأقدام الواقفة أمامه، مبديًّا إعجابه الشديد بنوع الجلد المستخدم في تغليفها، محاولًا في نفس الوقت تذكر نوع الشاحنة التي ضربت رأسه، وبين تعارك الأفكار في رأسه وتعالي الأصوات داخله من طنين متواصل وحشرجة هادئة، كان خيط الدم الهابط من أعلى وجهه مرورًا على عينه، قد بالغ في المسير، وألفى نفسه متدحرجًا على التراب، وبينا هو كذلك، بدأت عيناه تصبان ما بقي لهما من تركيز نحو إحدى الرجلين، وهي تعود للوراء ترتفع بهدوء نحو الأعلى حتى بلغت أقصى ما يمكنها بلوغه، ثم أخذت تهوي نحو الأسفل مرة أخرى، ومع أن سرعتها كانت كبيرة جدًّا إلا أن أستوديو التسجيل الذي يمتلكه عماد في رأسه وبعد أن أصابه ذلك العطب قبل قليل، فقد عدل على بعض أزراره ليجعل المشهد يتباطأ شيئًا فشيئًا كي يمنح نفسه وقتًا

كافيًا ليستعيد خلاله أهم صور حياته التي مر بها، فأغمض عينيه وجهز نفسه استعدادًا لتلقي تلك الضربة على وجهه، مع أنه لم يكن يشعر بأي ألم ولا أي شعور خارجي من شأنه أن يعكر صفوه تلك الحادثة التي قد تنهي حياته، وقد أحس بهدوء غريب وراحة عميقة لم يسبق له أن شعر بمثلها، بعدما أدرك واستيقن أن موته أصبح محتمًا، وأن لا خلاص له هذه المرة فقرر أن يعيش آخر لحظات حياته بابتسامة ناعمة، وانطلق صوت قوي ثقب الصمت والهواء منبعثًا من مكان ما في تلك اللحظة، مكان لا يشمل الأحداث التي هو واقع فيها حتمًا، فانفلت الزمن وانفلت شريط التسجيل داخل رأسه، وأخذ يتسارع فجأة، وما لبث أن سمع صوتًا ينشأ فجأة على مقربة من رأسه، وأحس بأن الأرض تهتز تحته، ولما تيقن أن خطبًا ما قد حدث ومنع من حدوث تلك الرفسة على وجهه، فقد أخذ يفتح عينيه ببطء شديد وروية، حتى إذا تمكن من فتحهما تمامًا، وتم له ذلك، وقعتا أول ما وقعتا على ذلك الوجه الأسود الغاضب وهو ممدد على الأرض بقربه، وقد تطايرت دماء رأسه على وجهه، وبينا هو شاخص فيه ينظره بكثير من الهلع والخوف المتراكم في صدره والذي لم يستطع ترجمته إلى أيما حركة ممكنة، وبينا هو كذلك وإذ بالأصوات تتعالى فجأة من حوله، أصوات مختلطة كثيرة طغت عليها أصوات الطلقات النارية العشوائية، وتكاثرت معها حركات الرجال من حوله، بين راكض وساحب نفسه على التراب وباحث عن

مكان للاختباء، وكانت الأرجل المتحركة العديدة التي كانت عينا عماد تتبعها بصعوبة ما تلبث أن تتساقط الواحدة تلو الأخرى وتخبو حركاتها.

بعد مرور ما يقارب العشر دقائق توقف إطلاق النار تمامًا، وهدأ الجو بشكل غريب جدًّا، فرفع عماد رأسه، وقام جزئيًّا بعدما عادت إليه حواسه وبعضًا من قواه العضلية، وجلس مستندًا على عجلة السيارة ينتظر ما المفاجئة التي من الممكن أن تكون الغابة قد خبأتها له هذه المرة، وما لبث أن اختفى الخوف من صدره وتحول إلى مجرد استفسار صغير عندما بدأت الشجيرات المختبئة تهتز أسفل جذوع الأشجار المتعانقة لتبرز منها مجموعة من الشباب حاملين سواطير وبنادق بسيطة ورؤوسًا مزينة بأشرطة خضراء تلتف حولها، وراح الرجال يتقدمون نحوهما في كثير من الحماس والثقة حتى برزت المجموعة بكاملها، وتكشفت عما يقرب العشرين فردًا يحيطون أحاطوا بهما.

وتقدم رجلان من الجماعة، حيث توجه أحدهما نحو السائق وأخذ يحدثه في أمر ما، بينما انحنى الآخر على ركبتيه، وأخذ يتلمس وجه عماد محاولًا تطبيب جرحه بأبسط طريقة ممكنة، بينما كان الأخير غارقًا في دهشته حائرًا بين ما حدث وما يحدث، وإذ بالرجال المحيطين به ينحون فجأة فاسحين بذلك المجال لزائرين مهمين جدًّا، ولأن المفاجآت في

هذا المكان كالمصائب لا تأتي فرادى، فإن الزائرين قد تمثلا في شخصي تلك الفتاة صاحبة العيون الرمادية ومرافقها الشاب مفتول العضلات نفسهما، ولما وقفا على رأسه أخذا يحدقان فيه بابتسامات مهدئة للحظة، ثم تنحت الفتاة قليلًا وغمغمت إلى أحد الرجال بشيء ما والذي بدوره اقترب من عماد حتى جلس إليه وقال:

- لا تخف يا سيدي! نحن أفراد من جنود حركة اليقين، وكن متأكدًا أنه لن يؤذيك أحد هنا.

أنزل عماد يده عن وجهه لما تلقف هذه الكلمات، وهو يتحسس رطوبة الدم بين أصابعه وقال بصوت تخلله شيء من التأوهات:

- لست خائفًا يا سيدي، كما أنني أعلم من تكونون جيدًا، وقد سبق لي وأن شاهدت بعضًا من تصريحات قائدكم على (السكايب)، وآمل أن تفاجئني وتخبرني بأنه هنا أيضًا.

وتبسم الرجل ابتسامة عريضة، فوضع بندقيته جانبًا وأمسك بذراع عماد كي يعينه على النهوض:

- لا، ليس هنا للأسف، إنه في مهمة أخرى هذه.

وأظهر عماد بعض الألم لما تحرك فكه المضروب بشدة:

- حسنًا، وهل حدسي مخطئ أيضًا إذ أنه يخبرني بأن وجودكم هنا لم يكن صدفة!

وتبسم الرجل ثانية بعدما تمكنا من الوقوف تمامًا:

- بلى، إن حدسك على حق تمامًا هذه المرة... (ثم تحول إلى جدية واضحة وأردف قائلًا): إن هذه الدورية قد كانت متوجة إلى إحدى القرى القريبة من أجل إحراقها، واعتراضنا طريقها قد تم التخطيط له مسبقًا، أما في ما يخص ذانك (وأشار بيده نحو الفتاة ورفيقها) وعن سبب زيارتهما للسيد ضياء الدين في تلك الليلة، فلأجل تبادل بعض المعلومات المهمة، حيث أنه طلب منهما حمايتكما في حالة حدوث أي مشكلة، وقد صادف أن تكون طريقكما وطريق هذه الدورية واحدة، وقد وددنا لو أنهم لم يعترضوا طريقكما حتى يمكننا مواجهتهم في مكان آخر دون تعريضكما للخطر، لكن وللأسف حدث ما حدث (ثم نظر عبر الطريق حيث تختفي مؤخرة الدورية، ثم عاد بناظريه نحو عماد الذي كان منهمكًا في التعديل على فكه المتألم، وقال في شيء من الإحباط والتأسف): على كل حال لقد تمكنت إحدى المركبات من الإفلات والمغادرة، ونحسب أنها تخص شخصًا مهمًّا في المجموعة، لذلك

عليكما توخي المزيد من الحذر فيما تبقى من الطريق نحو المدينة.

أومأ عماد برأسه أن نعم ثم أشار بيده خلسة نحو ذانك اللذين أثارا اهتمامه مرة بعدة مرة وقال:

- ما العلاقة التي تجمع بينهما، لقد لاحظت أنهما لا يفترقان عن بعضهما أبدًا.

ومع ابتسامة ثالثة ما لبثت أن تحولت إلى شيء من قهقهة مكبوتة، قال بعدها:

- توبو وشالينا، هما شقيقان... (ولما صمت قليلًا حيث مسح الابتسامة من على وجهه، أضاف بعدها): لقد ذبح والداهما وشقيقتهما الصغرى، وها هما هنا.

وانتهت المحادثة...

-١٠-

انطلقت السيارة مجددًا، مثقلة بالمزيد من الهموم والأفكار هذه المرة، بينما اهتم الرجال من خلفهم بتجميع جثث العساكر على قارعة الطريق، ثم اختفوا في عمق الغابة بلمح البصر كما ظهروا أول مرة.

وتحت ظلال الغابة وخيوط الشمس المتسربة داخلها والمتساقطة على السيارة، كان عماد قد وجه اهتمامه نحو الساعة ذات الحلقة الزرقاء الجميلة، والتي تسلمها بنفسه من صاحبها كعربون صداقة لصداقتهما القصيرة جدًّا، وكتعويض على تلك الضربة التي أكلها على وجهه، وخاصة أن بطارية هاتفه واقعة في شيء من الاحتضار المزعج، وترك ساعة على يد رجل ميت يعتبر خطأ في حد ذاته، ولما أقنع نفسه بأنه قد أعجب بها كثيرًا من الإعجاب وجه وجهه نحو الطريق حيث بانت بوابة كبيرة من الضوء والتي هما على وشك الدخول فيها.

ولما خرجوا من أشجار الصنوبر كانت مدينة «باغوا» تلوح لهم من بعيد، وقبل ذلك كانت الطريق الملتوية الموصلة إليها لا تزال محصورة بين الحقول المائعة المشبعة بالمياه الوردية، كان ظهور المدينة أخيرًا إيذانًا ببدء فصل آخر من فصول هذه الرحلة.

ومع اقترابهما من مدخل المدينة لاحظا بعض الحركات الغريبة أمامهم، واستبينوها جيدًا بمجرد اقترابهم منها كفاية، فها هم مجموعة من البشر العرايا المرتعدين يقبعون على جنبات الطريق داخل بركة ماء واسعة، بين فضلاتهم وكل تلك البقايا الوسخة وروائحها النتنة، ينازعون ويتأوهون من شدة الألم المتوغل في عظامهم، نتيجة مكوثهم في بركة المياه الباردة فترة من الزمن مؤكد فيها أن ظلام الليل قد دار عليهم أكثر من دورة واحدة، ومن شدة تضاغط أجسادهم المحشورة على بعضها البعض وتدافعهم داخل قضبان السجن الخشبية المحيطة بهم من كل جانب، تمامًا كمن يمسك بعشرة طيور سمّان ويرميها داخل قفص صغير لا يسع رأسه، ثم يضعها داخل حوض بلاستيكي ويملؤه ماءً حتى منتصفه، ثم يُلقي به على شرفة النافذة عند نسيم الصباح البارد.

ثم إن من الجنود والرهبان البوذ أصحاب البذلات البرتقالية من يلتف حولهم، ويرميهم بالحجارة أو يهش عليهم بالعصي، ومن يُلقي عليهم الشتائم والتفلات وهم يضحكون فرحين بصيدهم ونصرهم.

انفلت الزمن بعدما تجاوزوا وجوههم المرتقبة المرعوبة الشاحبة وأجسادهم الهزيلة الهزلية العظمية، وعاد إلى سابق عهده، يسارع الخطى غير آبه بحال أحد من الخلق، كان يبتسم أو يبكي، أو متوجها نحو الحضيض، فلا يحاسب ولا يعاقب ولا ينصف ولا يرد مظلمة، ولا يوغل شأنه في شأن أحد من البشر، ويواصل الجريان بنفسه والدفع بهم نحو مصائرهم الحتمية.

ولما بادلوا حراس البوابة ابتساماتهم الصفراء ودخلوا المدينة، استقبلتهم هذه المرة بيوت عصرية لائقة، تفصل بينها شوارع زرقاء إسفلتية، وحتى الوجوه فمنها الجديد، ومنها الضاحكة البادية نواجذها وتعلو ضحكاتها، وبين كلها تختفي بعض الملامح الحزينة المرهوبة الشاحبة، هنا خليط من المسلمين والبوذيين، وإلى هنا ارتحل المستوطنون أيضًا وأخذوا يزحفون على المدينة وعلى شوارعها، تمامًا كما تزحف النار على حقل القمح اليابس وهم يتقدمون في سيرهم بدت كل المساجد وهي مهدمة عن آخرها، ومن سلم منها تم تحويله إلى معبد للديانة البوذية، بحيث أصبحت تدار على يد أصحاب المناشف البرتقالية بعدما اغتصبت من يد أصحاب العباءات البيضاء والرمادية.

***

انتهت جولة الصاحبين إلى دور كبير تعلوه نوافذ زجاجية زرقاء توضح مدى أهمية الأشخاص الداخلين والخارجين من

وإليه، ولما توقفت السيارة جانبًا ونزلا منها، كان على عماد أن يتريث قليلًا قبل الدخول، فلقد انحنى قليلًا تحت السيارة بالقرب من إحدى عجلات السيارة الخلفية حيث بذل جهدًا صغيرًا فقط ليتمكن من استعادة دفتر ملاحظاته والكاميرا الصغيرة خاصته اللذين كان قد خبأهما قبل أن ينطلقا من القرية، ولما تم له ذلك قام ومسح عن ملابسه ثم دلف يتبع السائق المنهك نحو الداخل، وترافقا بشكل هادئ ومرتب حتى لما انتهيا إلى قاعة واسعة ذات مقاعد جلديه فخمة تتوسطها طاولة زجاجية مرتبة بأناقة، وتعتليها مزهرية صغيرة من الزهور المنسقة تنسيقًا محكمًا بحيث تدفع كل من يجلس بقربها إلى تذوق روائحها عن قرب، ولما أعاد عماد الزهرة إلى مكانها، واتخذ لنفسه مكانًا يجلس عليه، راح ينقل بصره بين السقف المبلور بفوانيس زجاجية لامعة، وبين مصعد كهربائي مرصع بالألوان الذهبية، وقد وقف في مواجهة المدخل مباشرة، أو نحو نصف جدار من الرخام محشور في الجانب الآخر من القاعة، وكان يختبأ خلفه رجل ذو تهذيب شكلي وسلوكي واضح بحيث لا يكف عن مد الجميع بشيء من سحر ابتسامته العريضة، وبجانب الجدار كان يبرز ممر ذو سلالم متصاعدًا بها نحو الأعلى، حيث تنتهي القاعة، ويبدأ فصل من الغرف المتجاورة عبر أروقة الفندق المتعددة.

وبينا هو ساهم في خيالاته تلك، فقد تسرب عنه صاحبه بحيث توجه إلى الرجل المهذب صاحب الابتسامة وراح يحدثه

في شيء ما، ولما فهم الرجل ذلك الطلب فقد رفع السماعة وأجرى اتصالاً سريعًا، سريعًا جدًّا، وحيث أنهى اتصاله، خرج من مخبأه جالبًا معه تلك الابتسامة، ومادًّا ذراعيه في كثير من التهذيب مُرحبًا أن تفضلا من هنا.

***

استلم السائق حقه من الشكر والامتنان وبعض الأوراق النقدية نظير خدمته الصغيرة ثم غادر الغرفة مخليًّا إياها لذانك الاثنين اللذين جلسا على مقاعد الضيوف في مواجهة بعضهما بعضا، وكان الجالس إلى عماد هو شخصية مدير الفندق نفسها، السيد «ماو لونغ» وكان ذا وجه دائري وأنف بارز كبير تمتطيه نظارة أنيقة من الزجاج الأبيض، وقبعة غربية تغطي رأسه الكبير، مع بذلة زرقاء أنيقة وحذاء أسود ذي خرجة طويلة نحو الأمام، فقد رفع إحدى رجليه على الأخرى، وراح يغمغم بشيء من الكلام الواجب كبداية.

وكان مظهره يعطي أول ما يعطي انطباعًا عن أنه لا يعدو كونه إحدى الشخصيات التي تمتهن تذويق موائد الطعام أمامها، وضخ الأموال إلى حصالتها بأي طريقة كانت من أول مرة، إلا أن سمعته الحقيقية كانت قد سبقته بفترة، بحيث أن عماد كان على علم جيد بصفاته الداخلية من خلال ما وصفه له نسيبه والسيد ضياء الدين، وظل الاثنان يتعارفان ويتبادلان أخبار المعارف الذين وقفوا بينهما حتى حضرت القهوة أخيرًا،

وامتدت أيديهما نحوها في كثير من الشكر والامتنان المتبادل، ولما رشفا أول رشفتين لوح الزائر بسؤاله أخيرا قائلًا فيه:

- وهل يوجد معسكر في هذه المدينة؟

- أجل... (كذلك رد المدير ماو لونغ) تم إنشاؤه منذ مدة ليست بالبعيدة، وهو يقع في الطرف الآخر من المدينة، بالقرب من البحيرة الكبيرة، تم إنشاؤه بعدما كثر عدد المستوطنين لحمايتهم من الفوضى التي تنشأ يوميًّا هنا، وكان ذلك في حد ذاته دفعة قوية للمستوطنين بحيث أصبحوا يعتدون على المسلمين بلا أدنى تفكير في العواقب.

فسأل عماد منحنحًا:

- وماذا عن تلك المسلخة التي يتحدثون عنها، أو وادي الموتى أو أيًّا ما كان ذلك!

وإذ تبدلت ملامح المدير حينها، قال:

- أجل، أجل، كل ذلك صحيح... (فوضع فنجان القهوة على الطاولة الصغيرة وشابك يديه في انفعال، أضاف بعدها) لقد زرت إحدى المدن القريبة منذ فترة، طبعًا وغايتي أن أتفقد الأمر، وحصل أن قادتني قدماي إلى سوق لبيع اللحم، لحم بشري خالص، سوق يتم

فيه تشريح وتقطيع المسلمين كأنما هي سوق لتبادل لحم البقر، حتى أنك لتجد خصرًا أو ذراعًا أو أرجلًا معلقة، بحيث تطلب ما تشاء منها لتقضي ليلة عشاء جيدة مع عائلتك (وإذ تحول جو الغرفة بشكل عكسي تمامًا، فقد تحولت ملامح الجميع والأفكار والمشاعر إلى شيء من الاشمئزاز والاحتقار والحزن والغيظ وخليط من كل ذلك، حتى أصبح من المتعذر على أي منهما أن يدنو من فنجان القهوة مرة أخرى، وإذ أخذ المدير هذه الاستراحة القصيرة ليفرك جبهته العريضة، أردف بعدها): أما عن وادي الموتى فهو لا يعدو كونه مزبلة بشرية كبيرة، بحيث أنهم يأتون بالجثث المتعفنة ملفوفة داخل أكياس أو على حالها، ويرمون بها فوق بعضها، وفوق بعضها، وفوق بعضها، حتى تكدست الكثير منها، وأصبحت فريسة وطعامًا وملاذًا للنسور الجائعة، لا يمكنك أن تواصل الوقوف على قدميك لأكثر من دقيقتين بقربها، ربما من هول المنظر أو من هول الرائحة، لكنهم يفعلون ذلك، وأنا لم أستطع فعل ذلك، لم أستطع النظر أكثر مما كنت نظرت، وليتني لم... لم أذهب إلى هناك قط... يمكنك أن ترى بسهولة ومباشرة الكيفية التي يتم بها سلخ الجلد البشري عن لحمه... (وأحدث عبرات لا بد منها).

هكذا هي الديانة البوذية، أو بالأحرى كل الديانات الكبرى غير الإسلامية على حقيقتها، فالبوذية تعتبر حاليًّا إحدى ديانات العالم الكبرى من حيث عدد أتباعها وتوزيعهم الجغرافي، والتي يؤمن أتباعها بهدفها الأسمى في الحياة، وهو الوصول إلى التنوير كما يرونه، كل هذا الدين أو المعتقد قد جاء به المسمى بـ «جواتاما»، وهو الأب الروحي لهذا الدين، حيث أنه وفي مرحلة ما قد ترك حياة الرفاهية التي كان ينعم بها ونزح نحو الزهد بعدما أمتع نفسه بطبق من الأرز، وجلس تحت شجرة تين لكي يتأمل ويصل إلى «الاستنارة» أو أن يموت محاولًا الوصول إليها، لكن وبالرغم من الآلام والإغراءات إلا أنه استطاع الوصول إليها في صباح اليوم التالي، طبعًا بعدما أعجبه شعور الجوع والبقاء جالسًا تحت الشجرة متاحًا لكل ظروف الطبيعة، وأقنع نفسه بأنه لا حاجة له بالمزيد من هذا، وبهذا أصبح يعرف بأنه الشخص المستنير «بوذا» ليخرج إلى العالم بهذا الدين الجميل المتفنن في تقطيع الأطفال وحرق الشيوخ واغتصاب النساء ونهب الأوطان وتجويع وتشريد وتفريق وتعذيب كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن له الحق للقيام بأي عمل يخول له نشر مذهبه على حساب حيوات الآخرين ما دام قادرًا على ذلك دونما حساب أو عقاب، ضاربًا بقوانين حماية الأفراد والمعتقدات عرض الحائط أو طارحًا إياها في أقصى الزاوية.

- لكن، وما دور الدول المجاورة في كل هذا، ولماذا لم تُبدِ رد فعل ملموسًا بعد كل ما جرى ويجري وبعد مرور كل هذه السنوات وتكرار الحادثة، وكأن هذه القطعة من الأرض وجدت لتتشبع بدماء البشر بدل قطرات المطر... (كذلك قال عماد وعيناه تترقرق دمعًا).

ورد المدير قائلًا بعدما أحدث فركة صغيرة على جبينه وابتسامة ذات معنى:

- الدول المجاورة، حسنًا، سوف أبدأ من الصين أولًا، كونها تعتبر المستثمر أو الداعم الأول في البلد، وذلك لما تمتلكه من مشاريع ضخمة في مناطق الروهينجا تحديدًا، ولم يتوقف دعمها لبورما حول أزمة المسلمين حتى الآن، وهو يعتبر أمرًا نادرًا وسط الانتقادات الدولية المستمرة، لأن هذا الدعم يقوم على حماية المشاريع الضخمة التي أطلقتها الصين في مناطق النزاع الواقعة على أحد طرق الحرير الجديدة، أقول أحد طرق الحرير الجديدة، وقد سبق وأن خصص الرئيس الصيني استقبالًا ضخمًا لنظيره البورمي مشددًا خلال ذلك على ضرورة إطلاق العمل بأسرع ما يمكن في مشاريع تعاون حيوية من بينها المنطقة الاقتصادية الكبرى في «كياوكبيو» الواقعة هنا في ولاية راخين، وتعتبر المنشآت في راخين حيوية بالنسبة إلى

الصين التي تسعى إلى ضمان أمن الأنابيب التي تنقل النفط والغاز من الشرق الأوسط إلى إقليم يونان الواقع جنوب غرب الصين، بحيث يتم تفادي مضيق ملقة بين ماليزيا وإندونيسيا، وعندما أقول الشرق الأوسط فإني أقصد تلك الأسماء التي تسابقت إلى فكرك حتمًا... (ولما أومأ عماد برأسه أسفًا، أردف المدير بعدها): وعلى غرار مناطق أخرى في بورما، تضم راخين ثروات جوفية هائلة، والغاز خاصة، لذلك فإن الحكومة تستغل السكان لمصالح أخرى غير الدين ولها دور كبير في هذا القمع الحاصل، فيما يتم اقتسام الأرباح بين الحكومة والشركات الأجنبية على حساب الأقلية المسلمة عبر استغلال النزعة الدينية لدى الناس الحمقى، والآن قد أصبحت معظم هذه الأراضي ثمينة وشاغرة بعدما طرد منها أصحابها... (وهنا عادت مسألة من يقتل لحساب الدين ومن يقتل لحساب المال والسلطة إلى ذهن عماد، وجاء معها جوابها) وأما عن دول الشرق الأوسط وما تمتلكه من مصالح اقتصادية تمنعها من التدخل وحل الأزمة، فإنها قد اكتفت بتقديم مساعدات مالية وغذائية بسيطة، فيما تقف بعيدًا تعد الأوراق النقدية التي تدرها عليها أنابيب النفط والغز خاصتها، وحال أمرها يقول معلنًا: «تخطي رأسي» وقس على ذلك عديد البلدان المجاورة، لأنني قد ذكرت لك

بعض العناوين الرئيسية ليس إلا... (ولما تعب لسانه ورأسه وفكره، قام عن مكانه معتذرًا ومشي مترنحًا نحو الزجاج الأزرق، وأطلق بصره نحو الخارج).

وأخذ صمت طويل مكانه في زوايا الغرفة، وتاه كل واحد منهما في أفكاره المتشعبة، إلا أن تذكر عماد أمرًا كان عليه القيام به منذ فترة، فنحنح قليلًا وقال:

- سيدي، هل يمكنني إجراء مكالمة إلى خارج البلد من هاتفك مكتبك!

استدار ماو لونغ ويداه لا تزالان ممسكتين ببعض خلف ظهره وقال مبتسمًا:

- أجل، بالطبع يا بني تفضل... (ثم عاد بنظره وأطلق خلف الزجاج).

قام عماد عن مكانه ودار حول المكتب حيث وقف على الهاتف، رفع السماعة وراح يضغط بعض الأزرار في عجالة، لكن صوت ماو لونغ جذبه فجأة باهتمام بالغ إذ قال فجأة وهو يفك يديه عن بعضهما وملوحًا بإحداها نحوه:

- عماد، أظن أن مشكلة ما تحدث في الأسفل، علينا تفقد الأمر بسرعة.

وهكذا أعاد عماد السماعة إلى مكانها، وقد عقد العزم على أن تكون هي أول شيء يلمسه إذا ما دخل هذا المكتب مرة أخرى، وارتد مسرعًا نحو محفظته المركونة في الزاوية، وأخرج منها آلة التصوير الصغيرة، ودلف خلف السيد ماو لونغ يتبعه عبر السلالم نزولًا نحو الأسفل، حتى انتهى إلى القاعة الكبيرة ثم إلى الشارع العريض بعدها.

وهناك وجدوا أن جمهرة من الناس قد تجمعوا وأخذوا يركضون بشكل فوضوي في كل الاتجاهات، بعضهم يبدوا عليهم أن يهربون من شيء ما، وآخرون يبدوا أنهم عازمون على الإمساك بشيء ما، وإذ أشار ماو لونغ إلى عماد بأن يتبعه من وراءه، فقد راحا يسارعان الخطى نحو نفس الاتجاه الذي تهرب منه بعض الجماعة.

وكانا قد عبرا شارعين أو ثلاثة عندما ألقى بهم زقاق ضيق إلى ساحة كبيرة مليئة بالصراخ والفوضى وحركات السيارات والدراجات النارية التي ملأت الساحة بأدخنتها وضجيج أبواقها، وكان رجال الشرطة الحريصين على سلامة المواطنين جدًّا قد تدفقوا إلى المكان جماعات جماعات، وأخذوا يستمتعون بضرب فئة من المواطنين دون غيرهم، كأنما هم فرقة دعم لبت نداء استغاثة، وبينا عماد وماو لونغ واقفان في مكانيهما يراقبان في ذهول ما يحدث، كان ثلاثة من رجال الشرطة المحصنين بعصي ضرب وخوذات للحماية، قد

نشبوا أيديهم على جسد رجل هزيل الملبس والملمس، وأخذوا في ضربه بالعصي ضربًا مبرحًا حتى طرحوه أرضًا، وانهالوا عليه ضربًا وركلًا على كامل جسمه، وكان جسده يرتد من الأرض كلما هوت عليه رؤوس العصي العنيفة من الأعلى حتى سالت دماؤه من فمه، ولم يعد قادرًا على التفريق بين الضرب والدغدغة، ثم قاموا بمساعدته على النهوض، ثم جره بعيدًا حيث لا يدري أحد.

لم ينتبه عماد إلى صاحبه الذي غاب لحظة، فلم يعره انتباهًا إلا لما صرخ في وجهه، فالتفت إليه في ذهول والدموع تترقرق بين أجفانه:

- ما... ما هذا؟! إياك أن... (كذلك قال ماو لونغ متواريًّا عن نظرات الآخرين) إياك أن تظهر أي ضعف هنا، سوف تتحمل كل هذا، هل فهمت؟! وإلا سوف توقعنا في مشكلة كبيرة إذا ما اكتشفوا أمرك (ثم أخذ يضرب على صدره بقبضته الكبيرة) في الداخل أنت مسلم، لكن في الخارج كن واحدًا منهم، يجب أن يكون تصرف وكأنك واحد منهم، حسنًا!

لكن صرخات الرجل وهو يتلقى ذلك الضرب كان مشهدًا قويًّا بحق، بحيث أن دمعة صغيرة كانت قد تسربت نحو الأسفل، فمسحها خفية وقال:

- لكن... (وشفتاه تتحركان في ذبذبات مرتبكة) لكن لماذا يفعلون بهم هذا؟

فأومأ ماو لونغ أن ليس عليه طرح سؤال كهذا ثم قال:

- إنهم يقومون بحملة هنا، وهذه ليست المرة الأولى، لذلك أريد منك أن تركز على عملك فقط، وليس أن تستسلم لمشاعرك، اتفقنا!

فأومأ عماد برأسه يعض على شفتيه أن نعم، وتحركا بعيدًا عن ذلك المشهد، وتسربا بين الناس المضطربة، وإذ بهما يوقفان جريهما على شاب عشريني وهو يُطرح أمامهما، وإذ اكتسب المستوطنون البوذ تلك الجرأة، فقد قام ستة منهم بجره بعيدًا حيث زجوا به في إحدى الأزقة الضيقة، وانهالوا عليه ضربًا بالعصي حتى لما كُسرت عظامه، وفقد القدرة على الحراك تمامًا، وفقد معها القدرة على الصراخ، كان الشاب هزيلًا كما الآخرين أيضًا، وكان منطرحًا على الأرض الباردة، والألم يتسرب إلى رأسه من كل مفصل من مفاصله، وكان عماد وماو لونغ قد حشروا الجماعة في الزاوية بنظراتهما، وراحا يراقبان في صمت ما الذي سيحدث للفتى، وكانت الجماعة المسرورة قد طرحت الفتى على بطنه قبلها، فدنا منه أربعة رجال، وأخذ كل واحد منهم بطرف من أطرافه، بحيث أن أمسك اثنان برجليه فيما أمسك الآخران بيديه، ورفعوه عن الأرض بجذبات صغيرة، وانهال عليه الآخران ضربًا

بالهراوات الغليظة، وراحا يكسران ظهره كأنما هم يلاعبون دمية عيد الميلاد أو كومة قش لا روح لها ولا تستشعر الألم، فكانت صرخات الفتى المكبوتة تنهال على مسامع عماد وماو لونغ، وكأنها مسامير ساخنة تدق في طبلات آذانهما، وإذ لم يتحملا الوضع أكثر، فقد عمدا إلى الإعراض والمغادرة، فيما تركا كومة القش تلك تحت رحمة طفل في الرابعة يلاعب علبة كبريت بين يديه.

ولما قادتهما خطواتهما بعيدًا، كانا قد ألفيا نفسيهما يصعدان شارعًا يميل عليهما بزاوية، وكان ينزل منه بعض الرجال يركضون وهم يصرخون صرخات لا تنم عن شيء سوى عن شراسة عظيمة، فكأنما هم حيوانات مفترسة جائعة متعطشة تطارد حفنة من الخراف الهاربة، ولما أمسكوا بالرجل المسكين الذي تعبت أنفاسه من الركض، اقترب منه أحدهم وهوى بهراوته الغليظة على رأسه، فشجه وأحدث له صدعًا عظيمًا فيه، ولا زالوا به يضربون ويركلون حتى فقعوا جمجمته، وأحدثوا فيها فجوة سال منها مخ رأسه الأبيض، واختلط بدمائه المنثورة أمام ما تبقى من وجهه.

ومر الاثنان عبر الجماعة المفترسة بسرعة وتجاوزوهم في حنق وغضب عارمين، وكبح شديد للأنفس، حتى انتهيا إلى شارع وأرض مستوية، واستوت أجسادهما عليها وراحا يسترجعان أنفاسهما الحارة، وقد ألفيا نفسيهما مجددًا أمام

جمهرة عظيمة من الناس المتجمعين في دائرة كبيرة حول شيء ما قد أثار اهتمامهم مع الكثير من الصراخ والهتافات المختلطة، ولما تمكنا من حشر جسديهما بين الحشد واستبانا ما الذي يجري، كاد قلبيهما ينخلعان عن مكانيهما لهول ما وقعت أعينهما عليه، فقد كان الجمع يحيطون بفتاة تمت تعريتها من ملابسها إلا من قطع قليلة تركت على جسدها لتُخفي عورتها، وكانت تصرخ باكية تحت خصلات شعرها المنسدلة على وجهها والدماء تغطي كامل أنحاء جسدها، وبين لحظة وأخرى كان أحد الشجعان المحيطين بها ينسل من جمهرته، فيهجم عليها بضربة كيفما كانت ليحدث لها جرحًا داميًّا على جسدها ثم يهود بسرعة للاختباء من حيث ظهر أول مرة في سرعة خاطفة، وكان آخر يأتيها فيضع قبضتيه على شعرها ويجذبه بكل ما امتلك من قوة حتى أنه لا يكاد يخلع به جلدة رأسها، فيطرحها أرضًا، ويغادر ساحة المعركة بابتسامة عريضة، وإذا أرادت الوقوف على قدميها كان أحدهم ينزل إلى الساحة مسرعًا، ويغدق عليها من ركلاته الرجولية القاسية، ويشتمها ويتفل عليها ثم يعود فرحًا منتصرًا إلى رفاقه.

واختلط الدم بالتراب وامتزجا على وجهها، وبينا هي تحاول تنظيفه بيديها، وإذ بشخص يجيئها فجأة، وكان يحمل قارورة بيضاء بيده، وأخذ يفرغ محتواها عليها حتى تبللت تمامًا، ثم ابتعد للحظة وعاد بمشعل من نار وألقاه عليها في برودة دم

ليس بعدها برودة، فالتهبت النار في جسدها الأنثوي، ذلك الجسد والذي إن كنا نذكر فهو لحم بشري تسكنه روح إنسان بإمكانها الإحساس بأي شيء، بإمكانها البكاء أو الضحك، روح أنثى، روح أنثى في يوم من الأيام كان أحد أكبر أحلامها أن ترتدي فستانًا أبيض، كما هو حلم كل الفتيات على هذا الكوكب، على اختلاف ألوانهن ولغاتهن وديانتهن ومراتبهن الاجتماعية، لكن حلمها الآن قد تحول إلى رغبة شديدة في أن تلفظ أنفاسها الأخيرة في غير إبطاء، لأن ذلك يؤلم جدًّا، وأخذت تدور وتتلوى على نفسها، على الأرض، تصرخ والنار تلتهم جلدها الناعم في غير ما رحمة أو شفقة، ثم كانت في لحظة ما ترفع رجليها المشتعلتين عاليًّا من شدة الألم، وتلوح بهما في الهواء أملًا في إطفاء النيران، ثم ومن حيث لا أحد يدري، حصلت على قوة مكنتها من الوقوف على قدميها، وأخذت تتقدم نحو زاوية من الجمع وهي شعلة ملتهبة تمشي مشية زومبي وتتأوه ألمًا ووجعًا وأنينًا وشجى وصداعًا وعذابًا ومخاضًا ومغصًا ونكدًا وصبًّا وأسأل الله أن يغفر لنا خطايانا، نحن السعداء!

لكني على يقين أنها كانت أكثر تعاسة من أي كائن آخر على هذا الكوكب، ثم لما خارت قواها وضعف تحملها، هوت على الأرض وهدأت حركتها في لحظة، لكن مقاومتها لم تتوقف، فكانت بعد كل هذا والنار لا زالت تدور على جسدها تحاول تحريك يديها ورفعها نحو فخذها علها تتمكن من وضعها على

موضع النار فتطفئها، لكنها لم تستطع ذلك وسقطت يدها، وتهز رجليها تارة، ورأسها تارة أخرى، وكانت آثار الحرق قد بدت تظهر واضحة على جلدها حيث احمرت مواضع كثيرة فيه، وتصاعدت أدخنة سوداء منها، ومنها روائح اللحم المحترق أيضًا تصاعدت منها، والناس تراقبها في برود ومنهم من هو في سعادة، في ابتسامة شيطانية حاقدة، حاقدة إلى درجة أن أحدهم لم يكتفِ، ودخل الساحة يحمل قارورة أخرى وصبها فوقها، فالتهبت النار أكثر وتأججت حتى غمرت جسد الفتاة وغطته بكامله، وليس يدري هل تلفت أعصاب الإحساس تحت جلدها أم ليس بعد؟

ولنحرف قليلًا على السيد «جلد»

قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

نضجَتْ: نَضَجَ اللحم قديدًا وشواءً

لم يتطرّق علماء التفسير الأقدمين للمعلومات التشريحية التي بيّنها الطب الحديث، وذلك لانعدامها في عصرهم، إلا أنهم ذكروا إشارات تلميحية إليها، فالإمام القرطبي مثلًا يقول في تفسيره: «فالمقصود تعذيب النفوس وإيلام الأرواح، ولو أراد الجلود لقال: «ليَذُقن العذاب» فالجلد مستقبل للألم فقط والغاية هي تعذيب الروح والنفس».

كشف علم التشريح أن كل أعصاب الإحساس موجودة تحت الجلد مباشرة فلو احترق الجلد ووصل الكيّ إلى اللحم لما كان هناك شعور بالألم، لأن الأعصاب التي تشعر بالألم موجودة تحت الجلد فقط، فتجعل الإنسان يشعر بالألم وتنقله إلى مراكز الجملة العصبية المركزية (النخاع الشوكي، المُخَيخ، المخ...).

إن أهم وظيفة فزيولوجية لجلد الإنسان هو الإحساس بجميع أشكاله، من لمس وحرارة وألم، إذ هو المستقبل الرئيسي لها، والجلد ليس عضوًا ثانويًّا، إنما هو عضو فعال وله شأنه الكبير في بقاء الحياة وحفظ صحتها، حتى إن الإنسان ليشرف على الموت إذا ما تعطل من العمل ما يقارب ربع مساحة جلده، ولو لم يتأذَّ ما وراء ذلك من عضلات وغيرها في العمق، وكان قديمًا يعتقد أن الإحساس من صفات الجسد بكل أجزائه، لكن علم التشريح الحديث جاء بحقيقة جديدة وهي: أن مراكز الإحساس بالألم وغيره من أنماط الإحساس إنما تتركز في طبقات الجلد الخارجية بشكل أساسي دون بقية الجسد.

والألم يحصل لأن على سطح الجلد الفسيح يوجد ما يدعى بنقاط الحس وهي التي يبدأ منها صدور الشعور وتوافق نهاية الليفات العصبية، وينتقل الحس من تلك النقاط إلى الليفات فالألياف حتى مراكز الجملة العصبية المركزية حيث يكون إدراكها واستبيان دلائلها، فالجلد وحده مصدر الألم والإحساس.

حتى إن المريض لا يشعر بالألم عندما يأخذ الحقنة إلا عند دخولها لمنطقة الجلد فقط، وفي الآية السابقة إشارة إلى أنّ جلد الإنسان هو المستقبل لأحاسيس الألم، وبواسطته يشعر الكفار يوم القيامة بالعذاب، وعلم التشريح لم يكتشف ذلك إلا في القرن العشرين حيث وجد الأطباء أن في طبقة الجلد

مراكز عصبية وظيفتها تلقّي الإحساس بالحرارة "Thermo-receptor" وتحويله إلى إحساس بالألم، ونقله إذا زاد أو نقص عن معدّل درجة الحرارة التي يتحملها الجسم العادي (١٨-٣٨)، فالحروق الأشد ألمًا كما تذكر الموسوعة البريطانية هي حروق الدرجة الأولى والثانية التي تصيب طبقات الجلد دون أن تُتلِفَها نهائيًّا أما حروق الدرجة الثالثة التي تخرق الجلد وتتلفه وتصل إلى العضلات والعظام، فألمها وقتي يكون حين الإصابة فقط.

لذلك كلما نضجت جلود الكفار أي شويت يوم القيامة في نار جهنم وتوقف الألم يبدل الله لهم جلودهم كي يتجدد الألم وليذوقوا العذاب عقابًا لهم على جرائمهم.

«لقد صنّف الأطباء الحروق بالنسبة لعمق التلف والضرر في الجلد إلى حروق من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، في حروق الدرجة الأولى تتأثر البشرة فقط، هذه الإصابات تتميز بالاحمرار والوجع، وليس هناك بثور، لكن يوجد أقل ما يمكن من الأورام (الورم نتيجة تراكم السوائل) في النسيج المصاب، ومثال كلاسيكي على هذا النوع من الحروق، حروق الشمس المعتدلة، أما الضرر في حروق الدرجة الثانية فإنه يمتد عبر مجمل البشرة وقسم من طبقة الأدمة (الطبقة الثانية من طبقات الجلد، تحت القشرة مباشرة)، هذه الجروح تتميز بالاحمرار والبثور، وكلما كان الاحتراق عميقًا كلما كانت

البثور سائدةً أكثر، والتي يزداد حجمها خلال الساعات المباشرة للإصابة، ومثل حروق الدرجة الأولى، فإن حروق الدرجة الثانية تعتمد على مدى التلف والضرر لطبقة الأدمة.

الدرجة الثالثة وتسمى السماكة الكاملة، فإن الحروق تخرب وتتلف مجمل السماكة للجلد الذي يمكن أن يكون رغويًّا أو أن يصبح بنيًّا أو أسود أو أبيض أو أحمر، لا يوجد في هذا النوع من الحروق ألم، لأن مستقبلات الألم قد زالت مع ذهاب طبقة الأدمة التالفة، كذلك تُتْلف الأوعية الدموية والغدد العرقية والغدد الدهنية وبويضات الشعر في الجلد الذي يتعرض لهذه الحروق ذات السماكة العالية، كما أن خسران المحيط المائع واضطراب عمليات الأيض المصاحبة لهذا النوع من الحروق تكون خطيرة».

وفي الآية القرآنية إعجاز كبير حيث أنها أشارت إلى أن مراكز الألم والإحساس تتركز في الجلد وحده دون بقية الجسم، وهذا ما كشفت عنه الدراسات التشريحية الحديثة، لذلك يبدل الله جلود الكفار كلما نضجت يوم القيامة، ليستمر الألم فقال -تعالى-: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، وهي تعتبر معجزة أخرى من معجزات نبينا الحبيب -عليه الصلاة والسلام-.

فهل كان لمحمد -صلّى الله عليه وسلم- دراية في علم التشريح والأنسجة فاقت عصره حتى جاء بما لم يعلمه البشر إلا بعد أربعة عشر قرنًا تلت؟

أم أن هذه آية من آيات الله تشهد أن القرآن كلام الله، فسبحان القائل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

كانت هذه وقفة لأخذ نفس ليس إلا...

***

لكن قلبه كان يبكي، وعقله كان يبكي، وكله كان يبكي إلا عينيه، فالدموع قد اختبأت خجلًا من سواد المنظر، وكيف لا وليس بعد ألم الحرق ألم، وليس بعد الموت حرقًا أي موت، ومرت دقيقتان منذ انطراح الفتاة الأخيرة، ومع ذلك فلا زالت تحرك أصابع يديها، وليس يدري هل ذلك بإرادتها أم هي سكرات الموت؟! ولما أشتد تعرق القلب وحمى على نفسه، أمسك ماو لونغ بذراع عماد وراح يجذبها بعيدًا، لكن الجموع لم تنته، فوجدا نفسيهما غير بعيد وقد اختلطا مع جماعة أخرى على نفس الطريق، وكانت هذه الجماعة قد انحدرت نحو خندق صغير على جنب الطريق، وأخذوا يهتفون حول شيء ما، شيء واضح عنوانه بقدر وضوح هتافاتهم الحاقدة.

-١١-

عندما أخذا لنفسيهما مكانًا وسط الجمهور وتبينا الأمر جيدًا، برق بصرهما في تلك اللحظة، وكاد أحدهما أن ينهار على الأرض حينها، لولا أنه كان يذكر الله في قلبه، وكانت عيونهما قد وقعتا على ذلك الخندق، ليس الخندق، بل ما كان فيه، وكان فيه كهلان وشيخ في عقده الأخير، وكلٌّ في يومه الأخير، وكان الثلاثة يجلسون داخل الخندق وقدت تم حشو الفراغ الباقي بأغصان الأشجار اليابسة السريعة الاشتعال، لذلك وجدت النار المرتفعة منهم سبيلها، وارتفعت وتصاعدت وتأججت على أجسادهم النحيلة، وكانت ملابسهم تذوب على جلداتهم الطرية، ولم تكن صرخات تصدر منهم، إذ أن حناجرهم قد امتلأت وتراكم الدخان المتصاعد بداخلها، فلا نفس ولا صراخ ولا قدرة لهم للشكوى أو التعبير عن الألم، فكانوا يتخبطون وسط محرقتهم محاولين الإتيان ببعض الحركات اليائسة، ربما التحرك وتحويل الجسد إلى الجهة الأخرى، الجهة لم تنضج بعد، أو ربما محاولات يائسة لإبعاد أغصان الأشجار الملتهبة فوقهم أو الوقوف، أو الخروج من

الخندق، وكل ذلك كان عبثًا، إذ أن الجمهور ولولعه الشديد برؤية مشاهد مثيرة حقيقية، فقد كان منهم من يتطوع نحوهم، فيضربهم ويركلهم ركلًا عنيفًا ليحبط بذلك محاولاتهم تسلق الخندق خارجًا ويعيدهم فيها مجددًا، وكان آخر يأتي محملًا بحزمة أخرى من أغصان الغابة القريبة ويُلقي بها في المحرقة، وليس تصرفه ذلك إلا أنه كره جوعه فآثر أن يرفع من لهيب النار حتى ينضج اللحم بسرعة، ويشفي غليله، ويشبع نهمه من الحقد والكراهية الدفينة المتأصلة في دمائه النتنة.

ولما اشتد نزع قلبيهما طفقا يهربان مرة أخرى، ولما تجاوزا بعض الشوارع والأزقة، كانا قد انتهيا إلى آخر المدينة، حيث بقيت طريق ترابية واسعة تنسل منها متوجهة نحو بناء مرتفع واسع يقبع في آخر الطريق، وكان على يسارهما بعض أجزاء الغابة المحيطة بالمدينة التي عند بحيرة واسعة تفصل بين الغابة وذلك البناء ذو الشكلية المميزة.

وانتبها إلى أنهما قد وقفا عند جدار يقف على يسارهما حينما وقع على مسمعهما صوت مجزرة أخرى، وأية مجزرة! وأية مجزرة تلك التي يتطلبها اختلاء ثلاثة من الرجال ذوي البنيات العظيمة بطفل صغير، بل ومتناهي الصغر، في وضع من السفالة الشديدة والدناءة البشرية الخالصة، فكان الطفل جالسًا وسط بركة صغيرة من المياه الحمراء الملوثة المرتفعة إلى بطنه، وكان الصغير لم يتعدَّ الرابعة حتمًّا، وإذ به

يتمايل يمينًا وشمالًا وفي الجهات الأربعة الأخرى محاولًا بذلك إبقاء رأسه فوق المياه وعدم الميل والسقوط داخلها مستعينًا على توجيه دفة رأسه بذراعيه الصغيرتين وهو يمدهما داخل الماء ويغرسهما في قاع البركة محاولًا التشبث بطينها، وبين الفينة والأخرى وإذ كان يغلبه النعاس الشديد فتخور قواه حتى يميل برأسه إلى الماء، فيسقط أنفه أو تسقط عينه أو شيئًا من جبهته فينتبه لنفسه أنه على وشك القيام بخطأ فظيع، فيصلحه بحركة شد سريعة يعيد بها رأسه وذراعيه إلى وضعيتهما الأولى، وكان أحد المقاتلين الشجعان المحيطين به قد عقد العزم على توثيق كل ثانية من أحداث المعركة، وراح يثبت هاتفه على المشهد ويصوره، وكان رفاقه يمدونه بمدد من الضحكات الخافتة والكلمات الهامسة لتشجيع بعضهم البعض على مواصلة القتال حتى آخر قطرة، أو آخر حركة دفع وإصلاح ميل، أو آخر نفس يحصل عليه الصغير، فكأنما هو يأخذ بعض حقهم من الأكسجين النادر.

ومرت دقيقتان على تلك المسرحية الحية، أما السيد ماو لونغ فقد اتخذ موقفًا بحيث أنه لم يسمح لنفسه بالوقوع في مظهر يكون دون مظهر الرجل الثري ذي البذلة الزرقاء والنظرة الشزرية.

أما عماد فلم يستطع كبح جماح عينيه هذه المرة، فكانت عبراته تنسدل في غمرة من الوجع وثورة من الحنق والغضب

عارمتين، واحمرت عيناه وظهرت له عروق الغضب على جبينه بشكل واضح، وإذ لاحظ السيد ماو لونغ ذلك في وجهه، فقد وضع يده على كتفه مربتًا، وأعطاه شيئًا من نصف ابتسامة يتخللها كلام كثير ومعانٍ جمة.

لكن عماد لم يستطع ولم يُرِد أن يستطيع ذلك، لم يُرِد أن يتمكن من المشاهدة أكثر فاعتذر مرة أخرى، فيما ترك الرجل والصغير والشجعان الثلاثة وانحدر نحو البحيرة.

وجلس إلى الماء وأخذ يغرف منه ويرش على وجهه كي يبدد الغضب العارم الذي اعتراه وبين لحظة وأخرى كان يرفع رأسه نحو المعسكر الواقف في نهاية الطريق، وكان أشبه بقلعة من قلعة العصور الوسطى المحصنة بأبراج للمراقبة عند الزوايا البعيدة، لكن ذلك البرج الصغير الذي كان واقعًا على خط بصره كان فارغًا حينها، وكذلك البوابة الخارجية لم يكن بها حراس يقفون عليها، غير أنها كانت مغلقة، فكأنما العساكر قد أغلقوا على أنفسهم في الداخل وغاصوا في سبات شتوي عميق، على الأقل كان من الممكن تصديق ذلك لولا أصوات الصراخ المنبعثة من الداخل والتي توحي بضجة كبيرة تحدث داخل أسوار البناء وبينا هو كذلك ساهم في مراقبة وجهه أو وجه الشمس المائلة إلى الغروب المنعكسان على سطح المياه، وإذ به يسمع أصوات غريبة تصدر من بين ثنايا الغابة، فالتفت نحو الشجيرات التي الواقفة وراءه، ثم قام عن ماء البحيرة ومشى

نحو مصدر الصوت، ولما دخل الغابة كانت الأصوات ترتفع شيئًا فشيئًا حتى مكنته من التيقن من أمرها، ولما اقترب كفاية وكان يتقدم بحذر عبر الشجيرات المتعانقة حتى أمسى على بعد أمتار قليلة من مصدر الصوت، والذي لم يتفاجأ كثيرًا برؤيته، وإذ حشر نفسه بين شجيرتين اثنتين بشكل يجعله غير قابل للرؤية تمامًا، واتخذ لنفسه مقامًا جيدًا، فقد راح يراقب بعينين جاحظتين وفم فاغر ودقات قلب متلعثمة حزينة.

يبدو أن الفتى قد دخل عقده الثالث بقليل، أو هذا ما يبديه المنظر، عار تمامًا وممد على أرض الغابة مقيد الأطراف والألم يفتك بجسمه من كل زاوية، من كل عضلة، من كل عظمة، ومن كل سنتمتر مربع في جلده، وكان أصحاب البدلات الزرقاء يحيطون به ويتماشون حوله، وعلى الأرجح أنهم ذو مراتب خاصة في سلك الشرطة، وربما قوات خاصة، لأن خوذاتهم الكبيرة وملابسهم المطرزة بإتقان بالغ توحي بشيء من ذلك، وكان أحدهم يحمل مدية طويلة في يده وراح يلعب بها ويلويها بين يديه أو يرميها في الهواء ثم يلتقطها ليظهر للجميع مدى إلمامه بكيفية استخدامها، وبالخصوص كان العرض البهلواني موجهًا نحو كتلة اللحم المستلقية على الأرض وهي ترتعد في خوف شديد، وتقدم الثاني نحو الفتي حيث أمسكه من رجله وأخذ يسحبه بعيدًا عن الشجرة التي كان مائلًا عليها، ثم فك رباطه وجعل يمسك به ويثبته على الأرض بيديه، وكذلك فعل ثالثهما عندما انضم إليه، فقاما بتثبيته على بطنه ولم يتركا

له أدنى مجال ليأتي بأي حركة، وكان عماد قد أسدل بعض الأغصان على وجهه كي يثبت لنفسه أنه قد اختبأ في شكل لا يسمح حتى لأنفاسه الحارة بالتصاعد فوق رأسه أو لنبضات قلبه أن تصدر صوتها بعيدًا خارج سترته، لكنه كان يسمعها، كان يسمع نبضات قلبه المضطربة اضطرابًا شديدًا كما اعتقد أنه لن يحصل لها ذلك مرة أخرى إذا ما أخطأ بأي حركة قد تكشفه مكانه، ولذلك فقد راح ينزل يده في رفق شديد نحو جيب سرواله حيث أخرج منه آلة التصوير الصغيرة، ولما أتم ذلك أعادها إلى أعلى في رفق أشد من المرة الأولى، وبحركات أخرى حذرة متأنية، جمع يديه الاثنتين حول آلة التصوير عند وجهه وراح يوثق المشهد في حذر بالغ، ونزلت قطرات من العرق البارد على جبينه أحدثت له دغدغة مزعجة، وكذلك أنفاسه الحارة كانت ترتد من على الأوراق الخضراء إلى وجهه، لكن الإتيان بأي حركة خاطئة كان يعني ميتة شنيعة حتمية، وخلال ذلك كان صاحب المدية قد جهز نفسه وتموضع بطريقة مناسبة، فأخذ يضرب ساق الفتى على نفس الموضع ضربات كثيرة، فيرفع مديته نحو الأعلى وينزلها في سرعة بالغة على نفس الموضع، وراح يضرب ويضرب ويضرب، وكان الصوت الناتج عن التقاء طرف المدية الحاد بعظمة ساق الفتى يحدث جرسًا أو جلبة أو حسًّا أو صريرًا أو صريخًا أو صداحًا مرعبًا مثخنًا بالقرف والقذارة المحدثة في دكاكين الجزارين عادة، وتواصل ذلك الأمر حتى قطعت ساق الفتى تمامًا وفصلت عن

الجسد، وبين جلجلة وصياح الفتى المتوجع والشجن والكمد والوجم والكرب المحدث في قلب عماد وفكره، كان الرجل قد أتى على الساق الأخرى أيضًا، ولما طرحهما إلى الوراء تنقل نحو الأمام قليلًا، وحيث ثبت الآخران ذراع الفتى جيدًا، فقد انهال عليها ضربًا كما فعل بذانك الساقين المرميتين أسفل الشجرة، وكانت الضربات على عظمة ذراع الفتى البيضاء تحدث شظايا عظم متطايرة امتزجت مع الدماء والتصق بعضها وطرف المدية الحاد الساطع مع كل ارتفاعة وانزلاقة تؤديها المدية، وكذلك فعل بذراعه الأخرى، فجعلوا يقطعونها بإصرار في غير ما إبطاء، حتى جمعت الأعضاء الأربعة إلى بعضها عند الشجرة، وتركوا مواضع القطع على جسد الفتى ترش الدماء على التراب وأوراق الشجر المتساقطة، وكان الفتى قد تحول إلى نفس الشيء ونفس الشكل الذي هو محتم على أي دمية وقعت في يد صغير مشاكس يكره الدمى أن تتحول وتصل أليه، كجسد بلا أطراف أربعة، بلا أيادٍ ولا سيقان، يحاول الإتيان بحركات معدومة لا توجد لها أيٍ ترجمة، فقد أصبح أشبه بفقمة سمينة ميتة لم تعد لها القدرة على أن تبارح مكانها ولو لسنتمترات قليلة، لكنه لم يكن ميتًا، لكنه لم يكن فقمة ميتة، لكنه لم يكن لعبة بلاستيكية، بل إنه كان إنسانًا بروح حية، وكان في مقدوره الشعور بالألم والوخز المنبعث من مواضع القطع في أطرافه، وكان بمقدوره الإحساس بانفصاد وسيلان دمائه وتفرغ جسده منها، لكنهم لم يكتفوا بذلك، لم

يكن كافيًّا، لا ليس بالنسبة لهم، ولكي تتحقق حكاية الدمية على أكمل وجه، ولأن الصغير المشاكس يفصل رأس الدمية عن جسدها أيضًا في العادة، فقد أمسك القاتل برأس الفتى المحتضر وراح يجرجر المدية على رقبته جيئة وذهابًا حتى تجاوز الحنجرة فتطاير دمه بعيدًا وواصل التوغل والانغماس نحو الأعلى، ولما استعصى عليه العظم فقد راح يجد في جعل حركاته أكثر فاعليه من خلال تدوير المدية في اتجاهات مختلفة، ودفعها بقوة أكثر حتى يتسنى لها التوغل والفصل بين عظمات الرقبة المتصلة، وسط شخير الفتى اليائس، ولما تم له ذلك وتجاوز ذلك العائق أخيرًا، فقد جاء على جلدة الرقبة الخلفية أيضًا، وفصل الرأس عن الجسد فيما ترك الجسد في وحدته على الأرض، ورفع الرأس عاليًّا ممسكًا خلال ذلك بشعرها، وأطلق ضحكة إبليسية سافلة تتبع ترددتها من منطقة البطن السفلى.

وحينها كان عماد قد وصل إلى حالة من الذعر والفزع ما جعلت أطرافه تقشعر وترتعش بشدة حتى أنه كاد أن يتوكأ على الشجيرة التي يحتمي خلفها من شدة الهول الذي أصابه، وعندما هم بالالتفات إلى الخلف والهروب من ذلك المكان، وأثناء رجوعه إلى الوراء قام بذلك الخطأ المعروف والذي من دأبه أن يحدث دومًا في مواقف كهذه، فداس على غصن يابس أحدث فرقعة تردد صداها إلى القتلة المحشورين داخل الغابة الذين ردوا النداء بدورهم عبر همهمات متفاوتة، أطلقت

جهاز الإنذار المحشو في دماغ عماد، فعمل عقله في تلك اللحظة بسرعة فائقة كما لم يعمل سابقًا، وحيث سمع همهماتهم وفهم أنهم آخذون في تتبع مصدر الصوت فقد ركض في طريق غير التي جاء منها، حتى ألقت به الشجيرات الصغيرة إلى حافة البحيرة حيث أسرع بالتقاط إحدى الزنابق المائية المنتشرة على حواف البحيرة، وقام بفصلها عن ساقها المنغرس تحت الماء، ثم وضع آلة التصوير عليها ودفع بها خلف غصن إحدى الشجيرات القريبة من الحافة حيث كان متدليًّا داخل ماء البحيرة، وعندما وصل القتلة ووقفوا خلفه مكشرين مزمجرين، أدار عماد رأسه نحوهم حط على وجهه تعابير العجب والدهشة متظاهرًا خلال ذلك بأنه قد تفاجأ كثيرًا بوجودهم، فيما أبقى على وقفة جسمه في مواجه البحيرة، ثم تعمد أن يأخذ كل وقته في إنهاء تبوله، وربط حزام سرواله ثم استدار بعدها نحوهم، وأظهر لهم شيئًا من الخوف والاحترام، لكن القتلة لم يمهلوه وقتًا للمسكنة، فرفعوا أسلحتهم في وجهه فرفع يديه إلى السماء، وانهالوا عليه بضروب من الكلمات السريعة والصرخات الغاضبة، فرد عليهم بوابل من الصمت وحزمة من الحركات المضطربة أحدثتها الكريات السوداء المهتزة في كثير من الذعر والفزع داخل بياض عينيه، وعندما ضاق الجمع ذرعًا من صمته وامتناعه عن الإتيان بأيما تفسير لتواجده هناك، فقد أمسك أحدهم بذراعه ولواها في عنف وثبتها على ظهره، وعندما استداروا خلفهم وهموا بدفع

الفريسة إلى مثواها، كان ماو لونغ قد وقف على طريقهم ومنعهم من التقدم بأي خطوة أخرى، واستبق الوضع بابتسامة ظريفة، وبعض الكلمات الأجنبية على المسكين المرتعد الذي كان فؤاده قد تفصد منذ فترة وجيزة، عندما أيقن بأن ميتته لن تكون لا على الفراش ولا غرقًا ولن تكون حادث سيارة، لكن العناية الإلهية تدخلت مجددًا وأطالت حياته، فأفلت العسكري ذراع عماد وأعادها إلى مكانها ثم دفع به نحو ماو لونغ، وذهب كل جمع في طريقه.

عندما صعدا ذلك المنحدر هربًا من الغابة ومن البحيرة ومن القتلة وتوسطوا الطريق، كان الحديث قد وصل ذروة العتاب والملامة.

- ألن تكف عن إيقاع نفسك في المشاكل؟! هذه المرة الثانية، لولا أن الله قد كتب لك الحياة لمدة أطول لكانت ميتتك أشنع من أي ميتة أخرى سبق ورأيتها، لقد راودني شعور غريب عندما اختفيت كل تلك المدة، ولا أدري كيف وجدت نفسي أنحدر خلفك، أقول لك إنها العناية الإلهية، هي من تكفلت بإحضاري إلى هناك، حقًّا لا أدري كيف وجدت نفسي أقف خلفكم؟

ولما أنهى ماو لونغ تلك المعاتبة وفاضت الدماء من أعلى رأسه حيث بدت حمرة جليّة على وجهه، تنفس بعمق وأبعد بصره عن عماد الذي كان مظهر الندم والأسف وشيء من

لوم النفس والخجل قد استحوذ على كل وجهه، فأطرق هنيهة خافضًا رأسه، قال بعدها:

- أنت محق يا سيدي، لقد ارتكبت حماقة كبيرة بالاقتراب منهم، لكن... لكن ما كانوا يقومون به.

فصرخ ماو لونغ لحظتها:

- حياتك أهم من توثيق ما كانوا يقومون به، أنت هنا للقيام بعمل، وعليك القيام به دون تعريض نفسك للخطر، هل أنت مدرك لمدى قربك من تخريب كل الجهد الذي بذلته حتى الآن؟! والأهم من ذلك مدى قربك من فقد حياتك... (وكان عماد قد رفع رأسه ليلتقط تلك الكلمات فقد خفضه مرة أخرى، فأضاف ماو لونغ بعدما سكت لوهلة، وقد هدأ عليه الغضب لما رأى من أثر صراخه ينعكس على وجه عماد الذي احمر خجلًا كطفل صغير): على كل حال، شعبيتي لا بأس بها بين الجميع هنا، وليس من السهل أن يرفض لي أحدهم أي طلب، ولسيما تكذيبي فيما يتعلق بأصدقائي، أجل، كانت تلك عناية إلهية، عناية إلهية صرفة (ثم أمسك ذراعه وهمس في أذنه بشيء يشبه): لست غاضبًا عليك، لكنك أمانة عندي، ولن يسامحني العم عادل إذا ما أصابك أي مكروه، وقبل ذلك لن أسامح نفسي أيضًا...

وتبادلا عناقًا رجوليًّا جميلًا يتخلله كثير من الأسف والكثير من المحبة، وترافقا في طريق العودة.

***

وفي هذه الأثناء كان العم عادل جالسًا في مكتبه يدخن سيجارة تبغ كبيرة وغارقًا في بحر الهواجس التي هاجت على فكره، عندما سمع ضربات خفيفة أحدثها أحدهم خلف باب الغرفة.

كانت تلك سيرين نفسها، زوجة عماد، ولما اتخذت لنفسها مكانًا على أحد الكراسي الجلدية الفخمة المعدة لاستقبال الضيوف، وألقت حقيبة يدها على الطاولة الصغيرة، شابكت يديها ونطقت بارتباك قائلة:

- بابا، أرجوك افعل شيئًا! لم أعد قادرة على التحمل، أليس هنالك أي وسيلة للاتصال به؟ أرجوك أخبرني بأن هنالك شيئًا ما يمكننا فعله!

رفع السيد عادل رأسه المعقوف نحو المكتب، ومال به إلى الوراء ثم أطلق زفرة عظيمة:

- لا أدري يا ابنتي، حقًّا لا أدري، لقد كان من المفترض أن يتصل منذ فترة، لكنه لم يفعل، ولا نملك أي شيء غير انتظار تلك المكالمة، حتما قد حدث أمر جعله

يتأخر عن الوصول إلى صديقي هناك، لكنه سوف يفعل، سوف يتصل، أنا متأكد من ذلك.

لكن تلك الكلمات لم تكن ما أرادته سيرين أن تسمعها حينها، أرادت شيئًا آخر، شيئًا يربط فؤادها الممزق خوفًا على زوجها، فتدفقت عيونها على يديها وانفجرت باكية، فقام السيد عادل إليها ولفها بذراعيه الحنونتين، وانغمسا في جو من الوساوس والمخاوف المختلطة.

والحقيقة أنه لم يؤخر ذلك الاتصال إلا تلك الحادثة الصغيرة التي حدثت في الغابة، وحالت دون وصوله في الوقت المناسب، ثم تلك الأصوات التي صدرت من الشارع أسفل الفندق، والذي جعلته يلقي السماعة من يده ويركض خلف السيد ماو لونغ نحو الأسفل، إلا أنه وكما يقولون فإن تبادل المشاعر الصادقة بين الناس قد يولد لديهم حاسة سادسة تمهم من الشعور بأي خطر قد يترصد بأحبائهم، أقول قد... وقد يمكن أن تكون حقيقة كما يمكن أن تكون كذبًا، لذلك عندما كان عماد والسيد ماو لونغ يهمان بعبور الشارع المؤدي إلى مكان المحرقة بعد صعودهم ذلك المنحدر المؤدي إلى الغابة أو البحيرة، كان بعض من العساكر قد تجمعوا على الطريق وأخذوا يجرون في اضطراب يركلون ويدفعون ويطلقون الغازات المسيلة للدموع نحو الجمهرات المتقاتلة، محاولين بذلك تفريقهم والإعلان عن انتهاء مذبحة اليوم،

فراحا يشقان الصفوف بين الحشود المضطربة، وفي تلك اللحظة البائسة كان أحد العساكر يجر ساقيه في شيء من التجبر والغطرسة، ويدفع بذراعيه كل من وقف على طريقه عن قصد أو عن غير ذلك، وكان عماد أحدهم، فعندما حاول عبور الطريق إلى الجهة الأخرى دفعت به حركات الجمع العشوائية نحو ذلك الرجل مترنحًا، وعندما التصقت يديه بظهر العسكري واستدار نحوه، لم يكن في وسعه فعل أي شيء أكثر من مجرد الاعتذار بالإيماء والمسكنة، والذي لم يكن كافيًا، إذ أن العسكري قد وضع أصابعه على كتف عماد ودفعه دفعة ألقت به على رصيف الطريق وعلى مبعدة يسيرة من وقع الأقدام المضطربة، واستمر الاثنان في تبادل الخزرات للحظة من الزمن، فذاك في خوف ودهشة، وذاك في غضب، وأثناء ذلك تنقلت عينا العسكري من أسفل ما يرتديه عماد إلى أعلاه ثم توجهت يمينا نحو معصمه، وبالتحديد حيث وقعت عيناه على الساعة الزرقاء المميزة، لكن ماو لونغ الذي وصل متأخرًا والذي لاحظ على وجه العسكري لمحة تنبىء وتكشف كثيرًا عن أسرار الحركة القادمة والتي لم تعد تفصل عنها سوى انفلات تلك الجمدة الزمنية فلم يكن بمقدوره فعل أي شيء، خفض العسكري رأسه نحو عماد وتطلعه بشزرة رعّابة تخللتها نصف ابتسامة صفراء درِنة.

ثم أمسك بمعصمه وعوّجها بقوة حتى أجبره على الاستلقاء على بطنه وصرخ على اثنين آخرين، حيث انحنيا فوق عماد

وثبتاه على الأرض جيدًا، وقاما بتصفيد يديه ثم رفعه عنوة وجره بعد ذلك بعيدًا عبر تلك الطريق، وهناك شعر السيد ماو لونغ بغضبة عارمة إذ أن إحساسه كان صادقًا، وصدق في قوله أن عماد قد أوقع نفسه في ورطة كبيرة جدًّا هذه المرة، كما أن العالم كله متفق على أن المرة الثالثة ثابتة، لذلك آثر أن يهرب ويواري نفسه بعيدًا عن أحداث ذلك الاعتقال والاكتفاء بالمراقبة، فالقائد المحنك في العادة يتحدث إلى جنده قائلًا: «خسارة المعركة لا تعني خسارة الحرب حتمًا»، لذلك فإن الانسحاب من أجل الحد والتقليل من الخسائر يعد أول خطوة قد يقوم بها أي عاقل زلت قدمه في وضع كهذا، وكذلك فقد جمع السيد ماو لونغ شتات نفسه وأسرع يخف الخطى نحو فندقه.

-١٢-

بعد مرور ساعتين كانت الشمس قد مالت إلى الغروب وخلفت وراءها قطعًا من الغيوم الحمراء الملتهبة في كبد السماء، أما طيور المساء فكانت تطير في حالة من الكسل وكأنها مجبرة على ذلك، وبعضها كان يحط على أسقف الثكنات المتجاورة فيما تطلق العنان لحناجرها المترهلة.

أما ضجيج المدينة فقد خبا، وسكن رجالاتها ونساؤها، وخمدت خيوط العواء والعويل التي كانت متأججة قبل فترة، أما عماد فقد غط في دوامة من الانعزال الفكري والحسي ما جعله يغيب عن كل ذلك العالم المحيط به، ولم يكن على دراية كافية من أمره بحيث يدرك أهو في منزله، أم في الغابة، أم في الفندق، أم أنه حيث يجب أن يكون، وبين كل تلك المحاولات المبتذلة لفتح فكره وفتح جلدات عينه اليسرى الملتصقة مع بعضها، سمع أصواتًا ضامرة تقترب منه شيئًا فشيئًا.

رفع رأسه لأعلى وكانت عينه اليمنى على قدر وافر من الصحة بحيث مكنته من التعرف على شخص صاحب

الخطوات القادمة نحوه، وكان ذلك أحد الجنديين اللذين قاما بتكبليه قبل ذلك واقتياده إلى المعسكر، فانحنى الأخير نحوه ووضع شيئًا من الطعام أمامه وطست ماء بجانبه، وحيث أطلق تنهيدة لبكة فقد قال بعدها بلغة إنجليزية رثة فيما معناه: «هل تعتقد أنك سوف تموت بهذه السهولة! حسنًا، هل تريد أن تعرف ما الذي أوقعك في هذه المصيبة؟! إنها تلك الساعة التي كانت على معصمك والتي أخذتها من القائد (شانغ لي) عندما قتل وسط الغابة، وكان القائد الذي تنبه لتلك الساعة عندما رآها على يدك هو صديقه المقرب، وإذ تمكن من الفرار من ذلك الكمين، فقد قدر له أيضًا أن يحظى بتعويض جيد عن تلك الخسارة، صدقني سوف تدعو ربك مرتين كل ثانية أن تموت بسرعة، لكن ذلك لن يحصل بسهولة، لن تحظى بذلك أبدًا». وإذ بدا واضحًا أنه يحادث نفسه، فقد زمجر قليلًا ثم نطق ثانية: «على كل حال، تناول بعض الطعام حتى لا تفقد روحك بسرعة». ثم استدار حول خلف العمود وانحنى يفك رباطه وغادر من حيث جاء أول مرة.

أما عماد فجعل يديه تلتقيان في حرارة بعدما افترقتا لمدة ساعتين والحبال تطوقهما بشدة أحدثت خيطًا أحمر متورمًا على كل منهما، ثم جعل يدني رأسه من طست الماء والذي هو ملكية خاصة لكلابهم المدربة، لكن واجب الضيافة حتم على الجندي استعارته من الكلب لمدة وجيزة، وحيث أحنى رأسه فقد أمكنه تفقد وجهه المشوه بشدة، والذي كان ينعكس

على طبقة الماء المتأرجحة، حيث برزت جلدات عينه اليسرى الملتصقة مع بعضها والمنفوخة مع صبغة زرقاء أحدثتها إحدى اللكمات التي وجهها الجنود إليه، ومن أسفل منها كان جرح بارز يتدفق دمًا، وعلى اليمين كانت الكدمات تتعدد أشكالها وألوانها، لكن الألم كان يتسرب من كل وجه، كأنما أدخل رأسه في شجرة عليق، وكان بعضه يتصاعد من ظهره وأسفل بطنه وساقيه، نتيجة الركلات والضربات التي حصل عليها.

وعندما اشمأز من طراز وجهه الجديد، فقد رفع رأسه وراح يسوقه من أقصى الزاوية يسارًا متوجهًا به نحو اليمين، ومما مر عليه أثناء ذلك، كانت البوابة الخشبية الكبيرة التي تربط بين جدارين يشكلان مقدمة المعسكر، وكل منهما ينتهي عند قلعة صغيرة معدة خصيصًا ليختبئ أحد الحراس فيها فيما يؤدي دوره في المراقبة، ثم ينعطفان إلى الوراء ليحيطا بكل ما في الداخل، وعلى بعد عشرة أمتار مباشرة، كان ثلاثة أعمدة خشبية ترتفع من الأرض في سلاسة إلى جنب بعضهم البعض، وكان قد رُبط إلى كل عمود ثلاثة شبان أسفله متجاورين إلى بعضهم ومحيطين به في شكل دائرة، وقد أحنوا رؤوسهم في نصف نومة، متعبين وجائعين، ومتألمين، ومهزوزي الخاطر، وكان العاشر والحادي عشر قد فُك رباطهما، وتم اقتيادهما منذ مدة وجيزة إلى إحدى الغرف الخاصة المرتفعة بجنب الثكنات حيث أخذوا يرفعون أصواتهم تارة ويخفضونها تارة أخرى، أما الثاني عشر فكان رأسه يسحق بفظاعة تحت

قدم أحد الجنود في أقصى الزاوية المظلمة، ذلك أن المصابيح المعلقة على خطوط عابرة على ارتفاع ثلاثة أمتار في السماء لم تكن قادرة على إنارة كل أرجاء الساحة الفسيحة بالعشب والتراب، وأما الثالث عشر فكان في حال من التعاسة والشقاء والصعلكة والعوز والنكد والنقير والوجع والسقم والعذاب والألم مما لا يمكن وصفه بالكلام إلا تشبيهًا بما وقع فيه الصحابي بلال الحبشي -رضي الله عنه- لولا أن هذا الثالث عشر كان في وضع يختلف قليلًا، وضع يشبه وأقرب ما يشبه ذلك الخروف المسكين الذي يتغذى عليه الجنرالات وقادة العساكر الكبار وأشباههم من أصحاب البطون المتدلية، حيث كانت تحمله ثلاث حطبات في الهواء، فواحدة عند الرأس والثانية عند القدم والثالثة معلق عليها الجسد مربوطًا من القدمين واليدين، في شيء يشبه شواية الغنم، لكنه كان مستلقيًّا على بطنه، فيما وضعت صخرتان فوق بعضهما فوق ظهره، ما جعله متقوسًا بشكل يفوق قدرة العمود الفقري على الاعوجاج حتمًا، لذلك هو يشبه شيئًا من الاثنين، وكان من يرتدي البذلة الخضراء جالسًا في الوراء موسعًا ساقيه وغارقًا في قهقهة مرتفعة عريضة.

ولما تقدم برأسه المثقل نحو اليمين قليلًا، وقعت عيناه على الثكنات المصطفة إلى جانب بعضها، وقد برزت منها أضواء خافتة كشفت عن حركات مشي متمايلة في الداخل، ثم وجه دفة رأسه وأسقطه بين ركبتيه وغاص في شرود عميق، يسبح

بين أفكار الموت العابثة التي كانت تنبعث إلى فكره فيما يشبه مسامير حادة تغرس في جمجمته، وكيف لتلك الأفكار أن لا تتدفق وقد رأى كل ما رآه، وقد سمع كل ما سمع، وقد وعده الجندي الذي ترك الطعام أمامه بما وعده، ولم يكن تسارع نبضات القلب يحدث هذه المرة، ربما لأن عقله قد أيقن بموته فلم يتجرأ حتى على محاولة تحذيره بأنه واقع في خطر، فاستسلم للعادة، واستمر بضخ الدماء بشكل عادي أكثر من العادة، أخي المرح المولع بإضحاكي دومًا، سيرين زوجتي حبيبتي وابنتي، لقد وعدتك بدمية، وذلك الأب الكاذب سوف يخلفه بوعده، العم عادل، لن تُلقي علي حكم الدنيا مرة أخرى، ولن تعلمني كيفية إرضاء ابنتك مرة أخرى، ولن أكتب على الجريدة مرة أخرى، ولن ألتقط الصور مرة وأخرى، ولن أفعل أي شيء مرة أخرى، وبدل كل هذا، سوف أموت ميتة شنيعة، وشنيعة جدًّا، ربما يتم حرقي، أو تقطيعي، أو ذبحي، وربما سلخي حيًّا، لست أدري، لكنني سأموت اليوم أو غدًا.

وبعد قرابة الساعة، كان العسكري قد عاد وربط يده إلى الوراء حول العمود، وحمل رغيف الخبز وطست الماء، وأطلق سبة عظيمة ومشى عائدًا تحت جنح الظلام الذي انسدل على الساحة.

وفي خضم تلك المشاكسة الفكرية العميقة، ظهر صوت أقدام ثقيلة تمر وتنسل في هدوء وتقترب منه شيئًا فشيئًا حتى

دنت منه تمامًا، وقال صاحبها بصوت خفيض جدًّا لما وقف عند رأسه:

- عماد، عماد! هل أنت بخير؟ استيقظ هيا، انظر إلي!

هز عماد رأسه هزة خفيفة أصعدته لأعلى وبذل جهدًا معتبرًا مكنه من رفع جلدة عينه السليمة لأعلى، فوقعت مقلته على الرجل الواقف أمامه، وكان ذلك هو السيد ماو لونغ نفسه بشحمه ولحمه.

وبينا بقي عماد متشبثًا بدهشته العظيمة وتوجعاته الداخلية، كان السيد ماو لونغ قد فك رباطه، وأركب له محفظته على ظهره وهمهم في وجهه قائلًا:

- لقد وجدت أشياءك على إحدى الطاولات في الداخل وانتهزت فرصة وأخذتها، والآن اسمعني جيدًا، ليس لدي الكثير من الوقت لذا علينا استغلال فترة الطعام قبل عودة الحراس، عندما تخرج توجه مباشرة إلى الغابة حسنًا! سوف تجد بعضًا من الرجال الذين قابلتهم سابقًا، وسوف يقومون بالتكفل بك وحمايتك حتى تصل المروحية.

فقاطعه عماد وهو يتحسس الجراح على وجهه مستفسرًا:

- هل قلت مروحية! (فيما تناسى كلمة أشياء كليًّا ولم يسأل عنها).

- أجل مروحية، وسوف تقوم بنقلك بعيدًا عن هنا إلى وطنك، حسنًا! والآن امضِ في طريقك ودعك من الأسئلة، أما أنا فلدي عمل لأقوم به هنا، فل يكن الله في رعايتك يا بني!

ثم ضرب على كتفه وابتسم له ابتسامة صغيرة ثم وقف على قدميه المترنحتين برفعة صغيرة مده إياها بذراعيه، ودفع به نحو البوابة المفتوح بابها بشق صغيرة بحيث يمكنه المرور من خلاله.

-١٣-

على بعد خمسين مترًا من مدخل المعسكر كان عماد يعود من الطريق التي اُقْتِيدَ عبرها مكبلًا قبل سويعات قليلة، متمايلًا يجر ساقه المريضة بسبب الضربات التي تلقتها من هراوات الجنود، وكان الظلام قد خيم على كل شبر من الأرض الجرداء سوى تلك البقع التي تساقطت عليها بعض من الأشعة القمرية الباهتة والتي جعلتها تسطع بمقدار ما يحتاجه الفرد لوضع خطواته في مكانها الصحيح، لكنه لم يأتمن الأمر على نفسه إلا حين ابتعد كفاية بحيث لا تكون لأي جندي قد يصعد إلى ذلك الحصن الذي يقع في مقابلة البحيرة وفي تلك اللحظة، أية فرصة لرؤيته وهو ينحدر نحو الغابة.

وجد منحدرًا بسيطًا مناسبًا لساقه المريضة، وراح ينزلق عبره يركل قطع الصخور والطوب الصغيرة ويُسبقها أمامه، حتى انتهى إلى الغابة المظلمة، ودخل معتركًا من الشجيرات التي تملأ الفراغات المتروكة بين أشجار الغابة، وأخذ يزحف برجله السليمة شيئًا فشيئًا بين الأحراش والأشواك التي كانت

تلقف جلده من حين لآخر، وأصوات عبث الحيوانات الليلة التي كانت تعصف بقلبه بقوة تجعل مداخله تفرز شيئًا من الأدرينالين الذي يعطيه دفعة قوية نحو الأمام كلما حدث ذلك فجأة، حتى وجد نفسه وقد ابتعد بحيث لا يمكن لأي صرخة إذا ما قدر لها أن تنطلق من داخل ذلك المعسكر التعيس أن تصل إلى مسامعه، وجعل ظهره ينزلق على جذع شجرة طرية حيث جلس على الأرض، وأخذ يتفقد الندبات المتروكة على جسده من أثر الضرب.

***

في يوم ما سئل أحد الزهاد عن بشاشة وجهه واستبشاره، فقال:

أستحي أن أحزن وأمري بيد الله...

أستحي أن يجد الله خلقة حزن على وجهي، إلا إذا أن ارتكبت ذنبًا فأحاول مسحه في الدنيا بدمعة صادقة قبل أن تكتبه الملائكة على صفحتي، أما عن الدنيا فإني أخجل من أن أظهر تذمرًا من أمر كتبه الله علي، وكأنني لا أتقبل قسمته، وكأني لا أتقبل قطعتي من الدنيا، وكأنني لم أحصل على ما أستحقه، وكأنني أفقد ما كان لي، وكأنني أملك حتى أظافر أصابعي، والحق أني لا أملكها، ولا أملك مني ولا من الدنيا شيئًا، ولا رب عملي يملك منها، ولا رئيس البلدية يملك ولا

الوالي ولا الوزير ولا الرئيس ولا القاضي يملك منها، فكل منصب وكل مركز وكل سلطة وكل أمر وكل نهي وكل مال وكل مسكن وكل مركبة وكل عظمة وعضلة وجلدة وقطرة دم على جسدك هو شيء أعارك إياه الله لتستخدمه أثناء فترة عبورك على الدنيا، ثم عليك أن تعيده إليه في اللحظة التي تفيض فيها روحك، فتمر بعدها إلى الحساب والجرد، وتفحص كل ما استعرته، وهل هو في حالة سليمة أم أصبته الأعطال، وطبعًا عليك تعويض كل عطب في حالة وجد، ولأخبرك عن بعض الأعطال فإنها كالتالي، يدك ولما رفعتها على قرار ظالم، ولما تركتها مدسوسة ولم تنصر قرارًا عادلًا، ولما رجحت الكفة لنفسك، ولبست بذلة سوداء، وأعلنت نفسك محترمًا، وفوضت الأمر لبارئه، وقلت معاذ الله أن أخذلكم، فأصبحت تحرص ظهرك نهارًا، وتحرص بطنك وما تحته ليلًا، وتأوي قبل صلاة الفجر، ولماذا أنت تأكل لحمة وأخوك في الدين يأكل لكمة، ولماذا تركب المرسيدس وأخوك يركب جثة أخيك الثاني؟ ولماذا تنام إلى جانب زوجتك وأخوك ينام إلى جانب رأسه؟ ولماذا لا تعرف غير صلاة الشكر فيما لا يعرف أخوك غير صلاة الخوف؟ ولماذا أنت لا تحسن تغيير إطار السيارة فيما أخوك يغير وطنه؟ ولماذا أنت تغير حذاءك كل يوم وأخوك يغير عدد أفراد عائلته كل يومين، وأنت تسهر تحت اللون الأحمر، وهو يسهر على اللون الأحمر، ولماذا راتبك لا يكفيك وهو أوراق صوركم تكفيه، وأنت تتبول وهو يتبول، وأنت تضرب الساق

بالساق وهي تضرب خدها بالكف الآخر، وتنامان الليل، وتخبر الوطن أنكم تحمونه وأنكم تحبونه، وهو يصدقكم ويزيدكم من فضله، وهو يخبر الوطن أنه حزين لأجله، لكن الوطن لا يستمع إليه ويركله خارجًا، ولا تأبهون لأمرهم، وتستزيدون من خزائنكم، وترفعون من مناصبكم تكثرون من معارفكم وهو فلتأكله الطير، ولست الملام عن أمركم، فأنتم تكتبون مصائرنا والله يكتب مصائركم، ولا تخبروا الملائكة عن زلات أصابعنا، فلم نكن يومًا لنختاركم، فطبت حكمًا عن معايشنا، وعن رغيف الخبز وعن قطع القماش التي على أجسامنا، وعن الضحكات المزروعة زرعًا على وجوهنا، وكل هذا عائد إلى حسن نياتكم فينا ورجاحة ضمائركم، ولا تخبروا من في القبر عن رفعكم للعمران وتزويقكم للشوارع ومد المساجد والزوايا، وحرث الأرض، وعن ركعة المساء فلن يصدقكم، نحن أصحاب المركبات المولودة في القرن الماضي نحدثكم ونخبركم عن مطالبنا، لسنا سعداء، ولتأخذكم رحمة الله بنا، وهو مولانا وهو يتولى أمرهم وأمركم.

ولا تحزن عن حبيب فارقك ولا سيارة اصطدمت ولا مصنع احترق ولا شهادة لم تدفع بك إلى مكتب ولا كلمة ضربت وجهك ولا ضحكة عن حسن صنيعك ولا عن مظلمة، واحزن عن زلة ارتكبت أو عطب في ما استعرت وادعُ الله أن يتولى أمرهم، ويخلص إخوتنا، بعد الدموع والدعاء لا نملك شيئًا، سوى قطرات حبر نفيضها على ورقة بيضاء علها تكتب لنا

حسنة أو تسلط علينا شيئًا من عذاب الدنيا فنذهب به ولا يبقى من أثر، غير البكاء عليهم ودعوة من القلب، أقول فيها يا رب، سامحني وسامح كل بكاء على حالهم، ومن تمنى لو تعود الدائرة فتنقذهم، فليس لنا حول ولا قوة، ومن قال اللهم أصلح حكامنا ومن ورثوا مناصبهم، وليس وليد هذا العهد ك عمر أو عبد العزيز أو سليمان ولا من كان بينهم.

***

وإذ رفع رأسه بعد فترة، فقد كان ذلك بسبب الأصوات المتفاوتة التي كانت تقترب منه وترتفع شيئًا فشيئًا، وكان معظمهما صرخات العساكر وصوت نباح أصحاب طست الماء وهم يتقدمون بهم يقتفون أثره في كثير من العجلة، ولما قام خائفًا مرتعبًا فقد أخذ يهرول باعوجاج شديد والألم يعتصر صدره وهو ينبعث من ساقه المتورمة، فقد كان يتوقف خلف أحد الجذوع هنيهة كلما قطع ثلاثة أمتار بنفس واحد، وكانت الأصوات تتعالى وتقترب منه وكذلك نباح الكلاب المرعب، وكان ضوء مصابيحهم قد بدأ يخترق فراغات الغابة ويصطدم بعضه بصدور الأشجار القريبة منه، واستمرت المطاردة وعلت الأصوات وانتشر الضوء كثيرًا، حتى لم يعد عماد قادرًا على الشعور بساقه المتألمة من جراء الألم، فركن إلى شجرة قريبة واختبأ وراءها، ودس رأسه بين يده، وأطلق كثيرًا من الدعاء الخافت، ولما أصبح لهاث الكلاب المتحمسة واضحًا مسموعة،

وانتشر ضوء المصابيح عند ساقيه، وتعالت هتافات الرجال الحانقة، فقد أوشك على الخروج من مخبأه والصراخ في وجوههم مستسلمًا، مع أن حصولهم عليه لم يكن يفصل عنه سوى سبعة أمتار من رائحة جلده التي تتبعتها الكلاب لأكثر من ألف متر من ساحة المعسكر حتى هنا، وبقايا الأغصان المتروكة خلفه، لولا أن حظه من خبز الدنيا لم يستوفَ كله بعد، فقد هجمت عليهم جماعة من الرجال وقتلت الكلاب وأسكتت أصواتهم في لمح البصر، أو ذلك ما خيل إليه لما كان يستشهد على وحدانية الله وقت حدوث تلك الضوضاء خلف الشجرة.

ولما هدأ روعه وسكن قلبه واطمأنت نفسه بعدما تيقن من صدق ابتساماتهم، واهتدى لمعرفة وجوههم، فقد تقدم إليه نفس الشخص الذي تحدث إليه لما حدثت نفس المشكلة في الغابة، وإذ كانت جماعة المقاتلين قد التفوا حوله كل ببندقيته البدائية وسواطيرهم، فقد قال الذي يتقن العربية بعدما انحنى على إحدى ركبتيه معتمدًا على سلاحه، وقد أحدث ابتسامة عريضة على وجهه:

- اهدأ! سوف تكون بخير، انظر إلي جيدًا! حسنًا! سوف أسألك أسئلة، وعليك أن تنطق بإجابات سريعة، اتفقنا!

وإذ اكتفى عماد بهز رأسه، فقد قال الآخر مقطبًا جبينه هذه المرة:

- هل السيد ماو لونغ بخير؟ وكم عدد الجنود بالتقريب في الداخل، وهل سمعت أو رأيت شيئًا يمكن أن يُفيدنا؟

- تركته بخير، ولم أرَ سوى ستة أو سبعة جنود يدخلون ويخرجون من الثكنات، وكان بعضهم منشغلًا في تعذيب بعض الشباب في الخارج، ولم يكن بمقدوري رؤية أكثر من ذلك.

- حسنًا، ماذا قال لك السيد ماو لونغ قبل أن تتركه؟

- أن أتوجه إلى الغابة لألتقي بكم، وأنه سوف تأتي مروحية لتُقِلني من هنا.

- أجل وذلك صحيح أيضًا!

- لكن هنالك شيئًا علي القيام به قبل ذلك.

فدنى منه الرجل أكثر، حيث قال:

- وأي أمر هذا، ما الذي تقصده؟

- لقد تركت آلة التصوير خاصتي على البحيرة، وعلي استعادتها لأنها تحتوي الكثير من الأشياء التي جئت لأجلها، ولا يمكنني خسارتها أيضًا بعدما أخذوا الهاتف مني.

فقال الرجل مستغربًا:

- هل قلت على البحيرة! ما الذي تعنيه بهذا؟

فقال عماد بعد تأوهات بسيطة أحدثها الألم:

- لقد تعرضت في المساء إلى وضع أجبرني على تخبئتها بسرعة، ولم أفكر في مكان أفضل من تركها على ورقة زنبقة مائية والدفع بها خلف إحدى الشجيرات المائلة على حافة البحيرة.

- حسنًا، وهل المكان بعيد من هنا! لأن المروحية ستصل قريبًا، ولدينا عمل علينا القيام به أثناء ذلك.

- لا، ليس بعيدًا عن هنا... (كذلك قال عماد وهو يرتكز على ساقه السليمة محاولًا الوقوف على قدميه): علي أن أعود إلى الوراء قليلًا، عند الحافة المطلة على المعسكر.

فقال:

- جيد إذن، ونحن أيضًا متوجهون إلى هناك، لذا هيا بنا لنسرع قليلًا!

وتعاون اثنان على رفع كتفيه والدفع به بين الشجيرات متقدمين نحو المكان المتفق عليه، ولما وصل الجيش البدائي الصغير، وأخفوا أنفسهم وسط الأشجار والشجيرات وظلام

الغابة، فقد راح الأولون منهم يتطلعون بعيونهم الزرقاء نحو المعسكر ونحو المنحدر المؤدي إلى الطريق في الأعلى وبعضهم نحو البحيرة.

- هل أنت متأكد من أنك وضعتها هناك؟ (كذلك قال رضاء بعدما كشف عن اسمه أخيرًا).

فرد عماد وهو يلهث من خلف الشجيرة نفسها:

- أجل، أنا متأكد تمامًا، لكن ذلك الجندي سوف يلمحني حتمًا إذا ما جريت إلى هناك.

فتحرك رضاء مبعدًا بعض الأغصان عن وجهه ومغمغمًا بشيء غير مفهوم، ثم أوضح الكلام قائلًا:

- يجب أن نجد حلًّا سريعًا، أو سيكون علينا ننتظر حتى يحين موعد المناوبة، والذي لا ندري أيحدث بعد دقيقة أم ساعتين؟

لكن صوت امرأة قد اخترق سحابة الحيرة التي تكونت فوق رأسيهما، حيث قالت شالينا من خلفهم بعدما أتمت عملية التجسس البريئة على حديثهما:

- أنا سوف أقوم بذلك.

- ماذا؟! تقومين بماذا؟ (كذلك قال رضاء وهو يلتفت نحوها).

فانضمت إليهما خلف الشجيرة، وقالت:

- سوف أقوم بإلهاء الحارس ريثما، يستعيد هو آلة التصوير خاصته. (وأومأت نحو عماد بوجهها).

- تقولين أنك سوف تُلهين الحارس، لكن كيف قد تفعلين ذلك دون أن تعرضي نفسك للخطر؟

فقالت بثقة واضحة:

- سوف أعرض نفسي للخطر، أجل، لكني سوف أشكل يدًا ضاربة في الداخل عندما تنضمون إلي.

ارتفع حاجبا رضاء وقد اعتلته برقة واضحة:

- لا، لا، لن نسمح لك بفعل ذلك، ليس أنت!

- بلى، سوف أفعل ذلك، هل تدرك مدى أهمية ما تحتويه تلك الآلة! كما أن الحارس سوف يقفز من مكانه مباشرة عندما يراني أتجول في الخارج، لكنه لن يفعل ذلك إذا كان المتجول رجلًا، بل سيكتفي بالتصفير لأصحابه، هل تفهم؟!

وأطرق رضاء بعدما أصابته حيرة عارمة، ثم التفت إلى عماد وشرح له الحديث الذي دار بينهما.

- إذن هي تفهم العربية، لكن لماذا لم تتحدث معي من قبل؟ (كذلك قال عماد).

- لا، يمكنها فهم الكلام فقط، لكنها عاجزة عن التحدث بها.

وبعد تبادل شيء من النظرات الصارمة بينهم، كانت الغلبة للفتاة وحسم الأمر لصالحها، وجلس الجمع، رضاء، شالينا، توبو، وبعض الشباب لرسم خطة سريعة لما اقتضته الظروف المفاجئة وهددت من كيان خططهم السابقة.

ظلام دامس ورطوبة شديدة عفنة وسط غابة موحشة، أجزاء قليلة متفرقة من خيوط القمر استطاعت التسلل عبر الغيوم المجتمعة والهرب بعيدًا نحو الأسفل، لتحتضنها مياه البحيرة، تراب الأرض والصخور التي تملؤها وأوراق الأشجار التي تغطيها، لم يبقَ شيء من الطبيعة إلا وتلطخ باللون الأحمر، بعضها جف، وكثيرها ما زال يرشد الخائفين إلى الطريق الخاطئ ما دام ضوء القمر ينعكس عليه كل ليلة.

ظلوا مختبئين خلف الشجيرات المتراصة مستخفين عن أنظار الحراس الذين كانوا يترصدونهم كالفرائس الحيوانية، لم يستطع التحكم في دقات قلبه وهي تتسارع بشدة، وهو ينظر مباشرة في عيني تلك الفتاة الشجاعة: «تبًّا لي! ألم أجد كلمة أفضل من هذه لوصفها؟ ها أنا أظلمها مجددًا، بقطع من القماش البسيطة المتهرئة غطت جسدها الهزيل ورأسها سترًا لعفافها، لكن ذلك لم يشفع لها أمام سطوة البرد القارص أو هي التي لم تشفع له وراحت تتحداه هكذا، وعزة نفسها ووصايا

دينها، وقطعة أخرى على ذراعها لتخفي جرحًا عميقًا لم تجد بما تداويه بها ولا وقتًا لتفضيه عليه».

بملامح بدت خالية تمامًا من أي مشاعر إنسانية، وعيون رمادية تسطع وسط الظلام بدت متهالكة، وكأن النجوم سقطت عليها مخلفة آثار حرق تحت جفونها، راحت تحدق نحوه هي الأخرى للحظات أخرى كانت أكثر من كافية ليتلقى ويفهم رسالتها: «إياك أن تضيع هذا هباء...»

إنها غير خائفة منهم، من أي أحد، ومما سيحدث لها، مع أنها قد لا تخرج من هناك حية، وأنها قد لا تعود إلى أخيها...

فكر وعزم الأمر في نفسه: «يجب علي إكمال مهمتي، أن أصل إلى البحيرة حتى لا تذهب تضحيتها هدرًا».

ومالت عيناها نحو اليسار قليلًا حتى استقرتا على شقيقها، والذي بادلها نفس الملامح ونفس النظرات، لم يُبدِ أي ندم أو انزعاج من الأمر، واكتفى بهز رأسه دفعًا لها، وعيونهما تقطر شررًا من حرارة الحقد والكراهية نحو غريمهما، هكذا تودَّعا...

وعادت عيناها إليه مرة أخرى، لكن بحدة وصرامة أقل هذه المرة، توقع أن يرى الآن بعض الدموع تنهمر من عينيها، لكن لا، نسي أن ينابيع عينيها قد جفت منذ زمن، ولم تعد أقسى المشاهد أو المشاعر قادرة على إسالتها مرة أخرى،

وابتسمت ابتسامة خالية من أي مشتق من مشتقات السعادة، ابتسمت ابتسامة لنسمها (ابتسامة خام) ابتسامة تحتاج إلى الكثير من التعديل والضرب عليها لتصحيحها، هي ابتسامة أقسم في نفسه أنه لو اجتمع مائة بشري من الذين يعرفهم ما استطاعوا تقليدها أو رسم مثلها، ثم استدارت واختفت بعيدًا عبر الظلام الدامس، تحت رنين القمر.

-١٤-

وهكذا اندس الآخرون في الغابة، مترقبين ومستعدين عن آخرهم، وكان عماد قد أنهى فرك يديه منذ لحظة، كأنما هو يستعد لانطلاقة العداء عادة، أما الحارس المترقب المطلق بصره نحو البحيرة، فقد وثب كالأرنب نحو الأسفل عندما لمح الفتاة تجول وحدها وسط الظلام أسفل القلعة، واسترسل الخطى يصطادها بهمة بالغة، وحيث أنه ترك قلعته الصغيرة فارغة، فقد كانت تلك هي نفسها الإشارة المنتظرة، فوثب عماد بدوره نحو حافة البحيرة القريبة، وأخذ ينقل بصرة عبر محيطها حتى بانت له تلك الشجيرة المتدلي رأسها على الماء، فدنا منها ونظر خلفها، فلم يجد تلك الزنبقة التي كان قد دفع بها إلى هناك سابقًا في مكانها، حيث أن الرياح المنخفضة قد دفعت بها وساقتها عدة أمتار عن الحافة، بحيث يستحيل عليه الحصول عليها دون قطع تلك الأمتار سباحة، لكن وبينا هو يأتي بتلك الحركات الحائرة، يحك رأسه ويطلق السباب، فقد قفز ذلك الجسم الأسود الذي كان على الزنبقة المائية

واختفى تحت الماء تاركًا وراءه نقنقة مزعجة وحفرة صغيرة من التموجات المترادفة.

فانقبض قلب عماد بشدة لما رأى ذلك، وهز عينيه عله كان متوهمًا، لكن الضفدع هربت حقًّا، وتركت الزنبقة المائية تعوم وحدها، فحمل كمده وغمّه وصدره المنبعج، وجر ساقه المريضة عائدًا إلى الغابة.

وحيث ركن إلى مكانه السابق بجانب رضاء فقد كشفت ملامحه عن أمره حتى قبل أن يقول شيئًا، ولما زادهم بالكلام تجهمت وجوههم في اللحظة نفسها، وليس ذلك حزنًا على فقدان آلة التصوير بقدر ما كان لأجل التضحية التي قدمتها شالينا، فقد ذهب هباء المياه.

مال رضاء نحو عماد الذي كان عائمًا في غمه، وقال مغمغمًا في وجهه:

- لا عليك يا عماد، لقد ذهب جهدك هباء، وكذلك تضحية شالينا بنفسها، لكن لعله خير، انظر إلي!

رفع عماد رأسه لأعلى وجعل الصمت يدب على وجهه:

- ما سوف يحدث الآن هو أننا سوف ندخل إلى الداخل، ونقوم بعملنا بعد أن يفتح السيد ماو لونغ لنا البوابة.

وذلك أن السيد ماو لونغ وبحكم معارفه المتعددة فقد أوجد لنفسه تلك الضيافة المستحقة داخل المعسكر، في شكل سهرة حمراء مع أحد معارفه ذوي المنصب.

- وحينها سوف ننقذ شالينا حتمًا، ولن يصيبها أي مكروه، أترى؟ حتى السيد ماو لونغ أخذ على عاتقه القيام بمخاطرة كبيرة في الداخل، ونسبة تعرضه للخطر كبيرة جدًّا، لذا ليس عليك أن تحزن لأجل هذا أو ذاك، لأنه وإن تطلب الأمر فإن أي فرد منا سوف يدفع بنفسه إلى نفس الوضع إذا كان ذلك لازما، أما أنت فعليك انتظار المروحية التي ستهبط قريبًا من هنا، لتغادر وطنك وتهرب بعيدًا عن هذا الجحيم، أن تنجو بنفسك، فليس أهم من ذلك الآن، وليباركك اللّه على مجهودك وحسن صنيعك!

ولما تبادلا عناقًا عميقًا نزلت معه عبرة من إحدى العيون الأربعة، وحيث أنهى الجميع تذمرهم من الأمر، فقد وصلت إشارة البدء بالهجوم، فطفق الجميع يصعدون المنحدر المائل نحو الطريق المؤدية إلى مدخل المعسكر.

أما عماد فلزم مكانه وأسند ظهره إلى محفظته الطرية وراح يتحسس الآلام على جسمه، فيما ينتظر سماع ذلك الصوت المفترض أن يدوي في السماء في أي لحظة، وبقي على حاله يترقب بزوغ المروحية أو تضاؤل أصوات تبادل إطلاق

الرصاص والصرخات المختلطة المنبعثة من داخل المعسكر، ولا زالت به الحال هكذا حتى انقضت نصف ساعة أو أكثر على حسب تقديره، وفي لحظة ما تصاعدت وشوشات من خلفه أخذت تقترب نازلة عبر المنحدر متوجهة نحوه.

فحدثت هلعة سريعة على جسده جعلته ينكمش وراء الشجرة، ولم يكن ذلك سوى رضاء نفسه حيث صرخ مناديًا:

- عماد... عماد! أين أنت؟

فدلهم على مكانه بصرخة صغيرة، وتقدموا نحوه.

***

- أتدري! لقد كان حالمًا بذلك اليوم الذي يرى فيه قواعد المساجد ترتفع في ربوع هذه الأرض دونما اعتراض من أحد... (كذلك قال رضاء وهو يطوق جثة ماو لونغ بنظرات عنيفة) على كل حال، لقد لفظ أنفاسه الأخيرة بين يدي، لكنه قال شيئًا مفرحًا قبل ذلك.

لم يُبعد عماد بصره عن وجه ماو لونغ المشوه تشويها مغالى فيه، وبقي يحدق فيه وفي كل الكدمات والجروح المرتسمة عليه، وتمامًا على تلك الابتسامة المتروكة على وجهه وقال وكأنه آلة تعبة:

- لقد مات بسببي، مؤكد أنهم كشفوا أمره عندما فك رباطي.

فهز رضاء رأسه هزة صغيرة، ووضع يده على كتف عماد وقال:

- لقد قال إنه وجد آلة التصوير وهاتفك على إحدى الطاولات في الداخل، فقام بأخذهما ودسهما داخل الحقيبة.

وإذ لم يُبدِ عماد تجاوبًا:

- ألن تلقي نظرة عليها؟

أدار عماد رأسه نحو الحقيبة المرمية بجنبه في برود وقال:

- إذا لم يكن هو من فتح البوابة فكيف دخلتم إذن؟

- عبر ذلك الحارس الأحمق الذي لما أمسك بذراع شالينا، نسي حتى أن يعيد مزاليج البوابة إلى مكانها...

فقال عماد وقد بدا وكأنه تفطن للشيء حينها، وحول وجهه بسرعة إلى الجهة الأخرى:

- وماذا عن شالينا؟! هل استطعتم إنقاذها؟! هل هي بخير؟

وحيث تجلت نصف ابتسامة على وجه رضاء، قال بعدها:

- أجل هي بخير، لقد وصلنا في الوقت المناسب.

ثم قام عن مكانه وبينما أخذ يعدل سلاحه أضاف:

- أعتقد أن المروحية قد وصلت، توجه الآن من غير إبطاء نحو مكان هبوطها، أما أنا فعلي العودة إليهم ومساعدتهم.

واختفى رضاء مرة أخرى عبر الظلام صاعدًا المنحدر، ومتوجهًا صوب الصخب الناشئ عن تبادل طلقات الرصاص، فيما ترك خلفه رجلين وكلت إليهم رفع جثة السيد ماو لونغ المبتسمة على ظهر حمالة مسروقة، والركض بها بعيدًا عبر الغابة، أما عماد فراح يسحب رجله بشكل متعرج عبر الأشجار المزروعة متوجهًا نحو الضجيج المرتفع الذي أحدثته شفرات المروحية أثناء هبوطها داخل الغابة، ولما انتهى إلى بقعة صلعاء من أرض الغابة، وجد المروحية وقد حطت عجلاتها على العشب القصير المتموج، فتوجه نحوها ودفع بمحفظته عبر الباب المشرعة أولًا، ثم ألقى بنفس إلى الداخل بعدها.

وارتفعت المروحية، وكان القائد وصديقه قد ألقيا نظرة خاطفة عليه عندما أوجد لنفسه مكانًا، واستلقى على ظهره داخل القاعة الحديدية الصغيرة، أما هو فكان غارقًا في تقليب نظارة مكسورة الزجاج بين أصابعه، والتي تعود إلى نفس الشخص الذي أنقذ حياته مرتين ومات في نفس الليلة.

دسها في جيبه السفلي، وأخرج هاتفه والسماعات من حقيبته، ثم أغلقها ودفع بها تحت رأسه، وكانت إشارة البطارية لا تكبر بكثير عن حجم خيط رفيع عندما فك قفله، ومرر أصبعه على مشغل الصوت، وثبت السماعات في أذنيه، وأغمض عينه الأخرى.

- ما بي أراك تبتسم هكذا؟

- لقد تذكرت شيئًا!

- وهل تريد إخباري؟

- (يبتسم) لقد رأيت ذلك قبل سبع سنوات، وربما عشر، لست أذكر، وكنت أشاهد التلفاز حينها، حيث أظهر المشهد إحدى الحيوانات البقرية وقد زلت أقدامها نحو نهر جارف شديد الاضطراب، وكانت عالقة على صخرة والمياه تحاول سحبها، عندما حضرت مروحية عملاقة وحضر معها عدة أشخاص آخرين بقرب النهر، ولست قادرًا على استحضار المشهد جيدًا، لكنني أؤكد لك أنه وبعد عشر دقائق كان ذلك الحيوان يرتفع عن مجرى النهار بحوالي عشرة أمتار أو أكثر، ثم مالت به المروحية عموديًّا واختفت بعيدًا.

- ولم ضحكت إذا؟!

- لا، لا شيء، فقط لست أدري لمَ تذكرت هذا الآن؟ ربما لأن وضعي الآن يشبه ما حدثَ لذلك الحيوان تمامًا!

وكانت الآية التالية: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

(٤٢ سورة يوسف)

وارتفعت المروحية عاليًا واختفت بعيدًا عبر السحب.

تمت

أما أنا فقد قفزت عاليًّا إلى السماء بسرعة كانت كافية لأن تمكنني من الارتفاع عن الغابة واختراق السحب ثم الغلاف الجوي للكوكب، والمواصلة أبعد من ذلك حتى إذ ما تباطأت سرعتي وتوقفت تمامًا، وجدتني أسبح وسط الظلام في فراغ هائل، وكل ذلك خلال مدة لم تتعدَ العشر ثوانٍ.

فكانت الشمس في الأسفل بحجمها ولهيبها الأصفر تأخذ مساحة كبيرة من المشهد البديع الذي كونته المجموعة الشمسية، الأرض والقمر والمشتري والمريخ وباقي الكواكب كانت تتراقص حول بعضها في دوران متثاقل، أما النجوم المضيئة فراحت تسطع من كل مكان من ذلك الفراغ الهائل، وكان بعضها يطلق ومضات وكأنها تغمز في كثير من الخجل من وراء الظلام، كم كان المنظر من ذلك المكان بهيجًا ومروعًا بشكل رائع، كل تلك النجوم والكواكب والشمس وأنا، كلنا نسبح في الظلام معًا، وكم وددت لو كان بمقدوري البقاء هناك والتجول أكثر، لكن شيئًا ما كان يجذبني نحو الأسفل، نحو ذلك الكوكب الأزرق، الأجمل بين الكواكب، ولما نظرت إليه

تذكرت مقالًا كنت قد قرأته سابقًا حيث علق فيه عالم الفلك الأمريكي العظيم كارل ساغان على صورة التقطت للأرض من بعيد، قائلًا:

«تلك النقطة هنا موطننا عليها جميع من تحب، جميع من تعرف جميع من سمعت عنه، كل إنسان مهما كان عاش عليها، هي جملة أفراحنا ومعاناتنا، الآلاف من المعتقدات والأفكار والمذاهب الاقتصادية، كل صياد وجامع طعام كل بطل وجبان، كل صانع ومدمر للحضارة، كل ملك ومزارع بسيط، كل زوجين يافعين واقعين في الحب، كل أب وأم، ابن، عالم، كل مخترع ومستكشف، كل معلم للأخلاق، كل سياسي فاسد، كل مشهور وقائد أعلى، كل تقي وآثم في تاريخ جنسنا البشري، عاش هناك على ذرة غبار عالقة في شعاع الشمس، الأرض منصة صغيرة جدًّا في ساحة كونية واسعة، تفكر في القسوة اللامتناهية التي يغزوا بها سكان أحد أجزاء تلك النقطة سكانًا آخرين بالكاد تميزهم في جزء آخر منها، كم هي متكررة اختلافاتهم! كم يتوقون لقتل بعضهم البعض! كم هي مشتعلة كراهيتهم! فكر في أنهار الدماء التي سفكت من طرف كل هؤلاء الجنيرالات والأباطرة! لكي يصبحوا بكل مجد وانتصار أسيادًا لجزء من نقطة، إن توهمنا بأهميتنا واعتقادنا بأننا مركز الكون تتحداها تلك النقطة باهتة الضوء، كوكبنا بقعة وحيدة في

الظلام الكوني العظيم في غموضنا في هذا الاتساع الرهيب، ليس هناك أي دليل على أن المساعدة ستأتينا من كوكب آخر، لتنقذنا من أنفسنا! الأرض حتى الآن هي الملاذ الوحيد للحياة، لن يمكن لجنسنا البشري أن يهاجر لمكان آخر في المستقبل القريب على الأقل، ربما لا يوجد أي إثبات لحماقة الغرور البشري أفضل من تلك الصورة البعيدة لعالمنا الصغير، بالنسبة لي فهي تجسد مسؤوليتنا كي نتعامل بلطف وعطف مع بعضنا البعض، وأن نحافظ ونعتز بهذه النقطة الزرقاء الموطن الوحيد الذي عهدناه منذ القدم...»

ولم نحسن تقاسمه للأسف...

رحت أنزل مرة أخرى بنفس السرعة التي صعدت بها قبلًا، عابرًا بذلك كل الفراغ المظلم ثم الغلاف الجوي والسحب البيضاء بعدها.

وحيث عبرت السحب فإنني لم أسقط في نفس المكان الذي صعدت منه سابقًا، بل وكأنني دخلت كوكبًا أو عالمًا آخر، خارطة مستطيلة الشكل، أجل، فبعدما اخترقت السحب وأصبحت تحتها وجدتني وقد وقعت قدماي على أرض مفروشة وكأنها بساط عملاق، وكأن الأرض قد تفتحت وأصبحت رقعة مستطيلة ثلاثية الأبعاد بحيث يمكنني الدوس عليها والمرور

من أقصى جنبها الأيسر إلى أقصى جنبها الأيمن في دقائق معدودة.

وكانت بعض المباني بذاتها ترتفع عن الأخرى، وحتى أنها تماثل الجبال في طولها، ومع ذلك فلقد كان بإمكاني ركلها، أو رفع ساقي عاليًا وتجاوزها بسهولة.

نزلت عند أقصى أرض في اليسار، عند بيت أبيض مميز، وليست تلك التسمية إلا لأنه اسم على مسمى، فقد كانت جدران المبنى بيضاء بكلها والسقف أيضًا، وقد فهمت بعدها بأنه المقر الرسمي والمركز الأعلى سلطة في العالم حاليًا، ولما أحنيت رأسي لأنظر من أعلى، وقد كان بمقدوري اختراق سقف المبنى ببصري وتبصر ما بداخله، فقد كان هنالك رجل أشقر يرتدي بذلة سوداء جالس على كرسي فخم، وقد شابك أصابعه بكثير من الخيوط الرقيقة وراح يتحكم في الدمى التي أمامه، ويجعلها تقوم ببعض الحركات المعينة فوق خارطة ممددة على سطح مكتبه، وعندما كانت إحدى الدمى تخطئ في حركاتها، كان يأخذ برأسها ويفصله عن جسدها ثم يركب واحدة أخرى في مكانها، وهكذا بين الفينة والأخرى كان يطلق قطعًا من الضحكات المتقطعة، تسيل معها الكثير من قطع اللعاب وتتطاير على الخارطة.

شعرت بالاشمئزاز من ذلك المشهد فلم أستطع النظر أكثر، فرفعت رأسي وابتعدت إلى الوراء قليلًا حيث لفت نظري بناء آخر كان قريبًا من الجهة الشمالية، ولما دنيت منه وجعلت أبصر داخله أيضًا، فقد رأيت قاعة واسعة يكسوها اللون الأخضر، الأرضية والكراسي المتجاورة وكل شيء في الداخل، وكان رجل قد اتخذ لنفسه مكانًا عاليًا في مقدمة المشهد، وقد أوشك على الانتهاء من خطابه البهيج الذي جعل كل الحاضرين يبدون حماستهم ويصفقون بحرارة لما حمله ذلك الخطاب من مصداقية في القول والفعل، ولما أمعنت النظر في إحدى الأوراق الموضوعة أمامه، فقد وجدت بأنها تحتوي الكثير من القرارات الصائبة والتي تصب في صالح البلد بشكل شامل، قرارات بشأن تطوير مجالات التعليم، وفتح الأبواب لغرباء البلد ما داموا قادرين على تقديم الإضافة، فما بالك بأبناء البلد! وقرارات بشأن قمع العنصرية والعمل على تحسين ظروف معيشة الأفراد دونما ادخار أي جهد ممكن.

ابتعدت عن مجلس الشيوخ وتركت أهله في سعادة غامرة، ونظرت إلى اليمين حيث كان علي قطع بعض الخطوات لاجتياز الزرقة التي تفصل بين القارتين، وكان المشهد يظهر المزيد من المباني المرتفعة والتي كان عليها زيارتها أيضًا.

قطعت ذلك الجزء من المياه التي تفصل بين القارتين وانتهيت إلى القارة الأوربية حيث وقفت عند أحد المباني البارزة، وانحنيت بجسدي فأخذ يتقلص شيئًا فشيئًا حتى أصبح من الصغر بحيث يمكنني الدخول إلى المبنى من بابه التي كانت تبدو صغيرة جدًّا من أعلى، فلما دخلت وجدت أن القاعة كسابقاتها، مفروشة بالكراسي بشكل دائري ينتهي إلى مكتب مرتفع في المقدمة، إلا ألوانها كانت تعج بالبنفسجي، وفي الوسط كانت ساحة دائرية صغيرة قد توسطت كل ذلك، مع مجموعة من الرجال، وقد ارتدوا مآزر بيضاء وهم يحيطون شيئًا ما بأجسادهم، وحيث لم يقدر أي واحد منهم على رؤيتي أو استشعار وجودي حتى، فقد شققت صفوفهم حتى وقفت على رأس ما كانوا يحيطونه بأجسادهم، فوجدت أنهم منهمكون في العمل على جهاز غريب بدا وكأنه يفوق زماننا بمراحل عديدة، وإن لم يكن يفوق زمان الجميع فبالتأكيد هو يفوق زمان البعض منا بكل تلك المراحل العديدة.

خرجت من القاعة بسرعة ومشيت نحو الأسفل قليلًا حيث كان مبنى آخر في انتظاري، فدلفت إليه بسرعة، وكانت القاعة في الداخل بهيجة هي الأخرى بكراسيها المزينة بالأحمر والأخضر والتي تنتهي عند سبعة تماثيل عملاقة تقف على رأسها في المقدمة، ثم سقف زجاجي أخضر بهيج يعانق كل ذلك من أعلى.

وكان الجالسون يتجاذبون أطراف الهدوء بشكل هادئ، وكل ما استطعت التنصت له هو بعض الهمهمات حول الـ ٨٣ مليون سائح الذين يزورون مدينة الجن والملائكة كل سنة، وعن كيفية زيادة عددهم، وأمورًا عن نشر ثقافتهم ولغتهم في العالم وأمورًا كهذه قد اتفقوا على بذل جهود حقيقية لأجلها كما اعتادوا دومًا.

ولما خرجت من مجلس الشيوخ ذاك، فقد قادتني قدماي بعد مسافة من السير إلى بناء مميز آخر، وكان الثلج يحيط به من كل جانب، ولم أرغب في الدخول لأن الريح كانت تضرب أبواب القصر في عنف وتجعلها تصطك داخل إطارها، وإذ ذاك فقد عبرت طائرتان عسكريتان سريعتان فوق القصر واختفتا في لمح البصر، وذلك ما أعطاني فكرة جيدة عما يتداولونه في الداخل، فهرولت مبتعدًا عن المكان متوجهًا نحو أقصى الأراضي الواقعة على يمين الخارطة.

وهناك وقفت أمام ثلاثة مبانٍ مرتفعة ومميزة عن مثيلاتها ومتجاورة بعضها من بعض، فلما وقفت في الساحة الكبيرة أمام تلك الأبنية فقد، وجدت أنها تعج بالرجال الآليين المتطورين والذين راحوا يقومون بحركات مألوفة جدًّا، فمنهم من يمارس رقصًا هادئًا، ومنهم من يبتسم أو يلقي التحايا

في أدب غامر، وإذ لم يكن من داع لمحاولة اكتشاف ما يحدث خلف أبواب تلك القصور، فقد عمدت إلى جري قدماي مجددًا والنزول بهما عن الخارطة قليلًا.

ووقفت في مكان يسمونه عادة «نيو دلهي» وكان به بناء دائري تحيط به أشجار الحديقة من كل جانب، وهناك حيث وقفت في الحديقة الخلفية كان مجموعة من العلماء بمآزرهم البيضاء قد تجمعوا حول صاروخ صغير موجه نحو السماء، وهم آخذون في التعديل عليه بحماسة شديدة، ولم أُرِد أن أزعجهم أكثر فقد تركتهم يواصلون ربط الأسلاك إلى بعضها البعض، وطرحت الخطى بعيدًا مواصلًا بذلك رحلتي نحو الأسفل.

وها أنا في الديار أخيرًا، وكل الأماكن التي سأمر عليها بعد سوف تعتبر بطريقة أو بأخرى من الديار أيضًا، عندما ترفع إصبعين من كل يد وتغمز بهما عاليًا: «إنها الديار يا صاح! أجل...»

وقفت على صحراء، كانت صحراء، والآن أصبحت إسمنت، وذلك جيد أيضًا، لكن القصر الذي كنت أقف أمامه والذي كان من المفترض أن أدلف إليه قد كان يقف أمام مدخله مجموعة من الشباب يرتدون العباءات البيضاء

يحملون عصيًّا في أياديهم، وهم يتراقصون في بلاهة بالغة، وخلفهم كان رجل يمتطى ناقة ويطوف حول بئر تنبع منه مياه سوداء، وكانت بعض الأنابيب تدخل البئر وتخرج محملة بذلك السائل، وتذهب به بعيدًا عن المكان، وراكب الناقة يتمايل مع ناقته على أنغام الطبل في الأسفل.

شعرت بالاشمئزاز، جرجرت قدماي بعيدًا عنهم نحو اليسار قليلًا، حيث وقفت عند مبنيين آخرين مميزين كنت أقدرهما وأفتخر بهما، لولا أنه قد وقف عند مدخل أولهما مجموعة من الشباب وقد اخذوا يجلدون أنفسهم بسياط حادة جعلت ظهورهم تنزف دمًا، وهم أثناء ذلك قد انكبوا على الابتهال بأغانيهم المزرية، أمام مدخل القصر الآخر وقف رجلان يحملان كتابين وراحا يتلوان منه ما تيسر على العابرين، وكان كل منهما يرتدي قبعة وبذلة سوداء، وتعلو ذقن كل واحد منهما لحية طويلة، تفلت عن شمالي ومشيت عنهما.

ويا للمفاجئة! فقد صدمت رأسي بشيء ما أخيرًا، ولما رفعته وجدتني أقف وسط ساحة واسعة يعلوها الصخب من كل جانب، وذلك أن جمهرة من الناس قد تجمعوا وراحوا يتراشقون الحجارة مع رجال الشرطة الذي وقفوا في الجهة

المقابلة، فآثرت المغادرة على المغامرة، وتفقد ما يحصل تحت سقف ذلك المبني الذي يتوسط الساحة.

ولما نظرت إلى ما تبقى من رحلتي، فقد كان لا يزال مبنيان أخيران في انتظار زيارتي لهما الأول كان يشبه مركز بريد ضخم من الخارج، ولم يكن في الخارج أي شيء مثير للانتباه سوى بعض المتشردين الذين يحومون حول المبنى، لذلك قررت الدخول وتفقد الأمر من الداخل.

ولما أزحت الباب عن مكانها، وجدت أن القاعة تعج بالهدوء والصمت، وكأن الجالسين هم محض مجوعة طلاب مطيعين عقلاء.

حقًّا!!!

مشيت بين أسطر الكراسي المتجاورة، ورحت أتقدم حتى انتهيت إلى وسط القاعة، حيث كان رجل يجلس على كرسي متحرك وهو يمسك بمفك براغي، ومن شدة اهتمامه البالغ وخوضه في إعادة أحد البراغي المتطاير من كرسيه المعدني إلى مكانه، فإنه لم يعبأ بوجودي حتى، لم أفهم ما الذي يحدث، وشعرت بالملل ورحت أعود أدراجي.

عندما وصلت إلى المخرج انتبهت إلى لافتة معلقة على الباب وقد كتب عليها: «واصل فعل ما تفعله لكن دون إصدار أي صوت، أو انصرف». لم أفهم شيئًا منها أيضًا...

رددت الباب إلى مكانها بقوة، فسمعت صوت ارتطام تلك اللافتة بالأرض، أدرت وجهي يمنة ويسرة ثم واصلت السير.

وها هو المبنى الأخير، ولم أفكر في الدخول إليه حتى، فمظهر الناس في الخارج وهم يتقدمون نحو رجل مختبئ تحت عباءة صفراء، وقد راحوا يقبلون يده واحدًا تلو الآخر، لم يدع لي أي مجال للتفكير في ذلك، وكان الرجل يحمل في يده الأخرى ورقة نبات من خمسة أصابع مميزة، بدا واضحًا أنها تعود إلى مجموعة أنه قد التقطها من حديقة قصره الخلفية التي كانت تعج بمثلها.

بعد كل هذا شعرت بأن شيئًا ما يجذبني نحو المكان الذي قفزت منه أول مرة، وشعرت أن رحلتي قد انتهت، فلم أجد بُدًّا من تتبع ذلك الصوت الذي قادني عائدًا نحو النهر الأحمر الذي كنت قد قطعته مع عماد على ظهر قارب الصيد الخشبي سابقًا، ولما مشيت قليلًا وقطعت تلك المسافة من الخارطة في ثوانٍ معدودة، فقد وجدت نفسي أقف على ضفة النهر مباشرة، وكنت أسمع شبه أصوات تناديني من الأسفل، نظرت

إلى السماء، كانت الغربان تطوف حول سحابة بيضاء حزينة، وكأنها تستعد للانقضاض على وجبة ما، مشيت أنحدر على الطين وأغوص حتى المياه الحمراء ساقي ثم أسفل بطني ثم صدري وعيناي وحتى آخر شعرة من رأسي، وانضممت إلى الجثث الملقاة في قاع النهر.

"بورما جُرح الإسلام النازف!"
أرضٌ يشتعل بها الجحيم والأهوال! تُزهق أرواح الأبرياء بين الطرقات! سماء تغتال الحياة والأحلام! عقيدتك أكبر آثامك! إيمانك جريمة! إلهك خطيئة! حيث تُولي وجهك ستُسفك دمائك!
اهرب ... لكن إلى أين؟!

مكتبة نوميديا 170
Telegram: @Numidia_Library

تصميم: محمود هشام
9 789779 920597